في المقالة المخصصة لـ «ورقة بن نوفل» نجد المستشرق بوهل يخمِّن أن ذلك الشيخ المتحنف ربما كان قد أثر في الرسول صلى الله عليه وسلم. يقصد أن الرسول قد يكون أخذ منه بعض الأفكار وضمّنها دينه، وذلك على ديدن المستشرقين، إذ يتهمونه صلى الله عليه وسلم بأنه لفّق دينه من هنا وهنا. كذلك فرغم ذكر الكاتب لما قالته المصادر الإسلامية من أن ورقة اعترف بأن الذي ينزل على الرسول عليه السلام هو الناموس الذي كان ينزل على موسى وأنه أخبره أن عيسى قد بشّر به وطمأنه أن النصر سيكون حليفه في نهاية المطاف رغم الصعاب التي سيلقاها من قومه، وأنه واسى بلالاً عندما رآه يقاسي التعذيب على أيدي المشركين، نراه يؤكد أن ورقة لم يسلم، ثم يمضي فيعزو عدم إسلامه إلى أنه كان مفكرًا دينيًا مستقلاً من الصعب أن يتابع رجلاً متحمسًا أصغر منه سنًا وأقل ثقافة(1).

ونحن بدورنا نقول إن من الصعب جدًا أن يوافق الباحث على هذا الأسلوب الذي يتبعه المستشرق صاحب المادة في الوصول إلى نتائجه، إذ ما الإسلام إذا لم يكن هو الاعتراف بأن الذي ينزل على محمد هو نفسه الناموس الذي كان ينزل على موسى وأنه نبيّ أمته وأن عيسى قد بشر به في الإنجيل؟ ليس ذلك فقط، بل لقد طمأن ورقة أيضا الرسول، على حسب ما ذكر الكاتب نفسه، بأن مصير دينه إلى الانتصار والانتشار، وإن كان قد نبهه أن الطريق إلى ذلك الانتصار ليس مزيّنا بالرياحين والزهور بل مفروشًا بالأشواك والصعاب. كما وعده بأنه لو كُتِب له أن

(1) ٦٣١/ ١. وقد ردد إدمون باور أيضًا الزعم بأن ورقة لم يجد سببًا لترك النصرانية واعتناق الإسلام. انظر: Joseph Hubby, Christus: Manuel d, Histoire des Religions, P. 782.

يعيش حتى يرى حرب قومه له فسوف ينصره نصراً مؤزراً[٢]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه بعد موته: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب حرير، لأنه آمن بي وصدقني». وهناك أحاديث أخرى تدور حول هذا المعنى[٣]. أفبعد هذا كله يقال إن ورقة لم يُسْلِم وإنه من غير المحتمل أن يتابع شيخٌ مثلُه واسعُ الثقافة رجلاً أصغر منه وأقل علماً؟ إن هناك رواية واحدة تقول إنه مات على نصرانيته[٤]. لكن هذه الرواية تناقض اعترافه بنبوة الرسول، الذي مر الكلام عنه آنفًا، كما تناقضها الأحاديث التي تشهد بإسلامه ودخوله الجنة.

أما الادعاء بأن الرسول عليه السلام قد تأثر بورقة فهو كلام كأي كلام مجمل مرسل دون دليل فلا يؤبه له[٥]. والروايات التي تتحدث عن ورقة والرسول لا تذكر أي علاقة بينهما قبل نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم. ثم أي تأثير أثَّره ورقة النصراني في الرسول عليه السلام، والإسلامُ الذي جاء به محمد يرفض أسس

(٢) انظر: «المغازي النبوية» لابن شهاب الزهري/ تحقيق د. سهيل زكار/ ٤٤، وسيرة ابن هشام/ ١/ ٢٣٨، وصحيح البخاري (بحاشية السّندي)/ ٤/٢٠٨.

(٣) انظر ابن شهاب الزهري/ المغازي النبوية/ ٤٥، وابن إسحاق/ السير والمغازي/ ١٣٣، وابن حجر/ الإصابة/ ٣/٥٩٧، ٥٩٨، وابن فهد/ إتحاف الورى بأخبار أم القرى/ ١/ ٢١٠.

(٤) انظر «الإصابة»/ ٣/٥٩٨.

(٥) مما يتصل بهذه النقطة دعوى كُتِبَ أن من الممكن أن يكون ورقة قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الروايات النصرانية، وأن ما ورد في إحدى السور (يقصد سورة «مريم») عن السنوات الأولى من حياة المسيح عليه السلام ربما أُخذ منه (E. E. Kellett, A Short History of Religion, PP. 336, 351). فهنا نحن أولاء نرى أن الأمر لا يعدو «من الممكن أن يكون» و«ربما»، وليس هذا من البحث العلمي في شيء، وإلا فباب الدعاوي والاتهامات لن يغلق أبداً.

النصرانية كلها من تثليث وتأليه لعيسى عليه السلام واعتقاد في صلْبه وأنه نزل ليفتدى البشر من الخطيئة الأولى التي عملها أبوهم آدم وورثوها هم عنه، ويرفض كذلك الأناجيل الموجودة في أيدي القوم لأنها ليست الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام من السماء، ويزيد على ذلك فيكفّرهم ويعدّهم مشركين؟[٦] ثم إن إيمان ورقة بنبوة محمد، ومنذ اللحظة الأولى ورغم شيخوخته، لينفي أيضًا دعوى هذا التأثير.

ويشكك بوهل فيما روته المصادر العربية من أن الرسول عليه السلام، بسبب من ضيق المعيشة في بيت عمه أبي طالب، قد أخذ عليًا ليربيه لقاء كفالة ذلك العم له أيام طفولته ويتمه. وكل ما يستند إليه بوهل هو أن ذلك لا يتفق مع ما يُحْكَى عن موقف أبي طالب في مواضع أخرى[٧].

أما ما هذا الذي يُحْكَى عن أبي طالب في مواضع أخرى، بل أيُّ مواضع أخرى تلك، فإن الكاتب لا يبالي أن يخبرنا. على كل حال، فالمعروف أن عليًا، كرم الله وجهه، كان من أوائل المسارعين إلى الدخول في الإسلام، وأنه قد مضى بعض الوقت قبل أن يعرف أبوه ذلك. وأحسب أن هذا مما يعضد التصاق الصبي بابن عمه صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت التصاقاً خاصًا، وهذا لا يتأتى في الغالب إلاّ إذا كان

(٦) ومع ذلك يقول د. فيليب حتّى (في كتابه «صانعو التاريخ العربي»/ ٣٢) إن «الإسلام من بين جميع الأديان الأخرى أقرب دين إلى المسيحية، فإن المسيحي لا يلاقي في القرآن الكريم ما يخالف عقيدته سوى أمور طفيفة قد يبدى اعتراضًا عليها». ترى هل يقصد د.حتى النصرانية الأولى، تلك النصرانية التي كانت توحّد الله ولا تفتري له ابنًا، ولا ترى في عيسى إلا عبدًا له سبحانه ونبيًا كغيره من الأنبياء؟ إن كان كذلك فنعم. لكن هل هذا ما يقصده حقًا؟ أما النصرانية الحالية فكلاّ ثم كلاّ.

(٧) ٢/١٢/ مادة «أبو طالب».

مرتبطًا به ارتباطًا قويًا ومصاحبًا له مصاحبة طويلة. وأول ما يَرِدُ على الذهن في هذا السياق أنه كان يعيش معه هو وخديجة أو شيء من هذا القبيل. وقد كانت سعة المعيشة التي تظلّل بيت النبي عليه السلام والحنان والكرم اللذان كان يتصف بهما هو وخديجة رضي الله عنها خليقة أن تدفعهما إلى أن يغدقا شيئًا من تلك السعة وهذا الحنان والكرم على ابن أبي طالب، الذي كان أبوه قد كفل محمدًا اليتيم في الأيام الغابرة. فما وجه الغرابة في هذا؟ وقد رأينا كيف أن الرسول عليه السلام، عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، قد اتخذ عليًا دون المسلمين جميعًا أخا(٨). كذلك فإنه أعطاه فاطمة رضي الله عنها دون أبي بكر وعمر(٩). وإني لأتساءل: ما الذي في كفالة النبي عليه السلام لابن عمه مما يستعصى على القبول حتى يرفض الكاتب الروايات التي جاءت بها؟ إن من الواضح أنه لا يريد أن يسلم للنبي عليه السلام بهذه المكرمة رغم أنها ليست من مكرماته الكبار!

وقد حكت الرواية أيضًا أن العباس عم الرسول عليه السلام قد أخذ ابنًا آخر لأخيه أبي طالب هو جعفر فكفله مثلما كفل الرسول عليًا(١٠). فلو كان المسلمون قد اخترعوا كفالة النبي لعليّ رغبة في نسبة هذه المكرمة إليه لما نسبوا مثلها للعباس حتى ينفرد النبي بذلك، أو لو أنهم اخترعوها للعم أيضًا لكان المتوقع أن يجعلوها لحمزة لا للعباس، فحمزة أسبق إسلامًا، ومات ميتة بطولية نبيلة في سبيل الدفاع

(٨) سيرة ابن هشام/ ١/٥٠٥.

(٩) انظر ابن الأثير/ أسد الغابة/ ٧/٢٢١، وابن سعد/ الطبقات الكبرى/ ٨/١٩ ـ ٢٠، والمحبّ الطبري/ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى/ ٢٩ ـ ٣٠، والعقاد/ فاطمة الزهراء والفاطميون/ ٢٣و See- Afzalur - Rahman, Encyclopaedia of Rah, Vol. II, PP 253.

(١٠) انظر سيرة ابن هشام/ ١/ ٢٤٦، وتاريخ الطبري/ ٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣.

عن الدين، وكان أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخًا له من الرضاع[11].

ويزيد بوهل فيزعم من عند نفسه أن أبا طالب كان ينظر إلى الدين الذي يدعو إليه ابن أخيه على أنه مجرد «وهم خدّاع : a delusion»[12]. وأعتقد أن هذا كلام خاطئ تمامًا. إننا لا نقول بإسلام أبي طالب، لكننا في ذات الوقت لا يمكننا أن نغفل هذا الموقف الرجولي العظيم الذي وقفه ذلك الشيخ من ابن أخيه حينما هاجت به قريش ودفاعه عنه إلى آخر نفس في حياته. فمثل هذا الموقف لا يقفه شيخ يعتقد أن دين ابن أخيه هو مجرد وهم كاذب.

ومن المؤكد أن الرواية التي تقول إنه قد كَبُر على ذلك الشيخ أن يفارق دين قومه هي أقرب إلى العقل والفهم[13]. ولو كان يرى أن دعوة محمد مجرد وهم فلماذا لم نسمع أنه قد حاول مجرد محاولة أن يزجر ابنه عندما اطّلع عليه ذات يوم وهو يصلي وكان لا يزال صبيًا صغيرًا يغري بالسخرية والزجر؟[14] ولماذا لم تفلت منه كلمة تدل على رأيه ذاك في الدين الجديد وهو يرى أخاه حمزة وقد أخذته الحميّة وأسلم وضرب أبا جهل بقوسه على رأسه فشجّه عند الكعبة؟[15] بل لماذا لم يصلنا عنه شيء يدل على تعاطفه مع أخيه الآخر أبي لهب، وبخاصة عندما نزلت فيه وفي زوجته السورةُ المعروفة تتهددهما بنار الجحيم وتصورهما ذلك التصوير الواخز

---

(١١) انظر، في أخوّته له من الرضاع، محب الدين الطبري/ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى/ ٢٥٩.

(١٢) ٢/١٢.

(١٣) انظر مثلاً سيرة ابن هشام/ ١/٢٦٦، وتاريخ الطبري/ ٢/٣١٣.

(١٤) انظر، في اكتشاف أبي طالب لإسلام علي، سيرة ابن هشام/ ١/٢٤٥ ـ ٢٤٧، وتاريخ الطبري / ٢/٣١٤.

(١٥) سيرة ابن هشام/ ١/٢٩١ ـ ٢٩٢.

الموجود فيها ؟[١٦] أحسب أن شيخوخته ورئاسته لعشيرته هما اللتان سوّلتا له أن يقف هذا الموقف الوسط: عدم التفريط في ابن أخيه والدفاع عنه إلى الرمق الأخير، والبقاء على دين الآباء والأجداد في ذات الوقت.

ويمضي بوهل فيدعي في موضع آخر من الموسوعة أن الرسول لم يتزوج على خديجة طيلة حياتها بسبب من وضعها الاجتماعي المتفوق ولأن ثروتها قد كانت له عونًا عظيمًا في كفاحه[١٧].

وهذا أيضًا من التفسيرات الخاطئة في نظرنا: فخديجة، كما يسلّم بوهل نفسه، هي التي عرضت على الرسول عليه السلام الزواج، أي أنها كانت الطالبة، وهذا معناه أن حبها له وإكبارها إياه كان عظيمًا. فإذا أضفنا أنها رفضت قبل ذلك أزواجًا ذوي مال ومكانة في قومهم تبين لنا مدى عظمة هذا الإكبار وذلك الحب. وهل أُثِر عن خديجة أية كلمة أو إشارة توحي بأنه كان في حياتها معه مكان لمثل هذا الاعتبار الذي ينفخ فيه الكاتب لغرض في نفسه؟ فمسألة إحساسه عليه السلام بتفوق وضعها الاجتماعي عليه لم تكن واردة. وهل كان انتساب محمد إلى آل هاشم بالشيء القليل؟ ولقد قال عمه بحقٍّ لعمها وهو يخطبها له منه: «إن محمدًا ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفًا ونبلاً وفضلاً وعقلاً. وإن كان في المال قلّ فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة. وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك»[١٨].

ثم كيف يفسر بوهل زواج الرسول عليه السلام بعد ذلك على عائشة؟ أكانت

---

(١٦) السابق/ ٢٤٧/١.

(١٧) ٢٣٢/١/ مادة «خديجة».

(١٨) ابن فهد/ إتحاف الورى بأخبار أم القرى/ ١٣٦/١، وأحمد زكي صفوت/ جمهرة خطب العرب/ ٧٧/١ (مع اختلافات في النص طفيفة).

عائشة من بيت ضئيل لا حَسَب له؟ أم كان أبوها من فقراء قريش المعدمين؟ إن أبا بكر كان واحداً من أكبر أثرياء قريش وأشهر تجارهم، وقد أنفق ماله كله في سبيل الدعوة. فلماذا يا ترى لم يمنع ذلك محمداً من أن يتزوج على ابنته لا زوجة واحدة بل زوجات؟ ثم ما الذي جعله يفضل خديجة على عائشة في وجهها، وهي الشابة الجميلة ابنة أقرب أصدقائه وأشد أتباعه حماسة، وذلك عندما أفلتت من فمها كلمة في حقها دفعتها إليها الغيرة بسبب ثنائه عليها ثناء مستطاباً بعد موتها بزمن طويل؟(١٩)

لقد أعطته خديجة الذرية، ووفرت له جواً هانئاً كله حب وتفان وإخلاص، وكانت ترعاه كزوجة وأخت وأم. ولم تكن هناك بواعث سياسية كالتي جدّت في المدينة تدفعه إلى أن يعقد صلات زوجية جديدة. ثم هل كانت ظروف الاضطهاد والتعذيب مما يتناسب مع هذا؟ فذلك هو الذي جعله لا يفكر في الزواج على خديجة لا ما يريد الكاتب أن يقوله من أن الرسول عليه السلام كان يشعر معها بالدونية! لا، ليس محمد هو الذي يمكن أن يطوف بخاطره هذا الإحساس وهو الذي تحدّى عنجهية قريش وتعظُّمَها بالأحساب والأنساب والثروات. وهل منع عليًّا مكانة الرسول، الذي يُوحى إليه من السماء أن يفكر في الزواج على فاطمة؟ فهل مكانة خديجة بنت خويلد في قومها أعلى من مكانة ابنتها فاطمة بنت محمد؟ ألا إن هذا الذي قاله بوهل لهو صَغَار تتنزه عنه كرائم النفوس.

ومع بوهل أيضًا ننتقل إلى ما كتبه عن أم كلثوم بنت رسول الله رضي الله عنها. وما أعجب وأغرب ما كتب! إنه يرى أن المعنى العادي والحرفي لأم كلثوم هو أنها كان لها ولد اسمه كلثوم. ثم يتخذ هذا دليلاً على أن ما رُوي عن زواجها بأحد

(١٩) انظر محب الدين الطبري/ السمط الثمين/ ٢٨ ـ ٣٠، وابن عبد البر/ الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ ٤/١٨٢٤.

أبناء أبي لهب صحيح، أي أنه قد دخل بها فعلاً وأنجب منها ولدًا اسمه كلثوم. أما اسمها الحقيقي فيقول إنه لا وجود له في أي من الكتب التي ترجمت لها أو تحدثت عنها. لكن أين ذهب كلثوم هذا؟ ولماذا لا توجد أخبار عنه؟ يجيب بوهل بأن المسلمين قد عملوا بكل جهدهم على إخفاء أمره وأخبار حياته بسبب كونه حفيد أبي لهب(٢٠).

إن بوهل، كما هو واضح، يخترع التاريخ اختراعًا، فهو يرفض ما جاء في جميع المصادر العربية من أن اسم بنت رسول الله هذه هو «أم كلثوم»(٢١)، ويعاند قائلاً إنه كُنْيَتها لا اسمها، بمعنى أنه كان لها ابن اسمه كلثوم. والحمد لله أنه لم يتهم المسلمين الأوائل بأنهم قتلوه من أجل جدّه لأبيه أبي لهب. وعلى هذا التفسير فإن كنية أبي لهب ينبغي أن يكون معناها أنه كان له ولد اسمه لهب، ولا بد أنه كان لأبي جهل ولد اسمه جهل، ولعليّ ابنٌ اسمه تراب (ألم يكنِّه الرسول «أبا تراب»؟)، ولأبي هريرة بنت اسمها هريرة. كما يلزم القول أيضا إن تسمية فاطمة الزهراء رضي الله عنها بـ «أم أبيها» إنما كانت بسبب أن الرسول عليه السلام كان ابنها فعلاً، وإن أمهات المؤمنين إنما سُمين بذلك لأن كلاً منهن قد أنجبت المؤمنين جميعًا من أول مسلم في عهد الرسول إلى يوم القيامة(٢٢).

ثم نتساءل: لماذا يخفي المسلمون أخبار ذلك الحفيد المزعوم؟ إنه لو كان له وجود فعلا ثم عاش وكبر فلا بد أن يكون قد أسلم، لأن العرب كلها قد أسلمت في

---

(٢٠) ٢/٦٠١/ مادة «أم كلثوم». وهذه المادة لا وجود لها في ترجمة د. راشد البراوي.

(٢١) كمغازي الزهري، وطبقات ابن سعد، وسيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، و«نسب قريش» للمصعب الزبيري، و«الاستيعاب» لابن عبد البر، و«جمهرة أنساب العرب» و«جوامع السيرة» لا بن حزم، و«السمط الثمين» لمحب الدين الطبري، وسيرة ابن كثير.

(٢٢) ومن أسماء البنات في قريتنا: «أم الخير» و«أم محمد» و«أم أحمد» و«أم العِلْو». وتسمى البنت هكذا منذ أن تنزل من بطن أمها، اللهم إلا أن يقول =

عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فلماذا يطمسون خبره؟ وهل طمسوا خبر عكرمة بن أبي جهل؟ أو أخته التي أراد علي أن يتزوجها على فاطمة رضي الله عنها؟ أما إن كان قد مات وهو صغير فهو طفل لا يقدم ولا يؤخر. وقد كان أحرى بالمسلمين، لو كانوا من هواة طمس الأخبار، أن يعفّوا على أخبار جده عم النبي من الأصل ويريحوا أنفسهم. فإذا كانوا لم يفعلوا ذلك مع أبي لهب ذاته فهل يفعلونه مع طفل صغير بريء لا حول له ولا طول؟ ثم لماذا يهمل المسلمون اسم بنت من بنات رسولهم عليه الصلاة والسلام ثم يتمسكون مع ذلك بكنيةٍ تدل على الأمر الذي كانوا يعملون على إخفائه؟ ألم يكن المنطق يقتضي أن يطرحوا كنية «أم كلثوم» ويعضوا بالنواجذ على ذلك الاسم الضائع، الاسم الذي ليس له وجود إلا في وهم المستشرق بوهل أو بالأحرى في زعمه واختراعه؟ وإننا لنتساءل: لم تنفرد أم كلثوم من دون أخواتها بتكنيتها بأحد أولادها؟ على أية حال فـ «أم كلثوم» معناها «ذات الكلثوم»، أي صاحبة الراية الحريرية(٢٣). وقد سمت السيدة فاطمة الزهراء بناتها بأسماء أخواتها، ومنهن ابنتها «أم كلثوم» التي تزوجها عمر بن الخطاب. أفتراها كانت تسميها هذه التسمية لو كانت «أم كلثوم» هي تكنية تلك الخالة (بابنها) لا اسمها؟ وقد شاع هذا الاسم بين نساء المسلمين تيمنًا باسم بنت النبي الكريم.

= بوهل: «ومن أدراكم أنها لم يكن لها ولد وهي في بطن أمها وقد بقى هناك ولم ينزل معها؟». وكانت هناك أيضا شاعرة في مجلة «صوت الشرق» الهندية التي كانت تصدر في مصر اسمها «أمّ النغم». هذا، ولم تكن العرب تشترط فى الكنية أن يكون لصاحبها ابن، كما كان الصبيان يُكَنَّوْن وهم لا يزالون صغارا لم يتزوجوا ولم ينجبوا ... إلخ (انظر نقد النثر) المنسوب لقدامة بن جعفر / ٤٢ - ٤٣).

(٢٣) ومن اللائي كان اسمهن «أم كلثوم» في ذلك العصر: أم كلثوم بنت الأسود، وأم كلثوم بنت جرول (سيرة ابن هشام) / ٢/٧٢٣ ــ ٧٢٤، وأم كلثوم بنت أبي بكر، وأم كلثوم بنت عقبة، وأم كلثوم بنت سهيل (انظر «جوامع السيرة» لابن حزم/ تحقيق د. إحسان عباس =

ويلوّن زيليجزون خبر خِطْبة النبي لعائشة تلوينا يُشْتَمّ منه رائحة الإساءة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فهو يقول إنه عندما خطبها الرسول صلى الله عليه وسلم أبدى أبو بكر رضي الله عنه بعض الاعتراضات، ولكنه في النهاية نزل على رغبات النبي عليه السلام وفسخ الخِطْبة التي كانت لجبير بن مطعم في عنقها(٢٤).

وصياغة الخبر على هذا النحو توحي بأن أبا بكر كان رافضًا بشدة لهذه الخطبة الجديدة ثم نزل على رغبة الرسول بعد ذلك وأنه من أجل هذا قد فسخ خطبة جبير بن مطعم لعائشة، وهو غير صحيح. والذي ورد في المصادر أن أبا بكر رضي الله عنه كان يظن أن الذي بينه وبين رسول الله صلي الله عليه وسلم من الصداقة الوثيقة وأخوة الدين يجعله بمثابة عم لعائشة، لكن الرسول أفهمه أن أخوة الدين شيء وما يترتب على أخوة الدم من حرمة بنت الأخ على عمها شيء آخر. ثم إن أبا بكر ليس هو الذي فسخ خطبة جبير بن مطعم لابنته، بل الذي حدث هو أنه ذهب إلى دار المطعم بن عدي ليعرف ماذا هم فاعلون في أمر هذه الخطبة التي يبدو أنها قد تمت قبل ذلك بزمن طويل، فلم يعطوه فرصة للتفاهم بل فاجأوه باتهامه بأنه إن تم الزواج المنتظر فلسوف يؤثّر على ابنهم ويدخله في دينه (ذلك أنهم كانوا مشركين). اتهمته بذلك أم الخاطب، وأمّن أبوه على ما قالته. وبذلك فُسخت الخطبة من جانبهم، فرجع أبو بكر بعد ذلك وأنكحها رسول الله علية السلام(٢٥). هذه هي الحقيقة لا ما

= ود. ناصر الدين الأسد/ ٤٣٧)، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي التي هاجرت من مكة بعد صلح الحديبية، وأنزل الله فيها (على ما جاء في بعض الروايات) الآية ١ من سورة «الممتحنة»، التي ينهي فيها المسلمين عن ردّ المؤمنات المهاجرات إليهم من بلد الكفر. انظر سيرة ابن هشام / ٢/٣٢٥ ـ ٣٢٦، و«أسباب النزول» للسيوطي.

(٢٤) ٢٥/ ١/ مادة «عائشة».

(٢٥) انظر مثلاً تاريخ الطبري/ ٣/١٦٢، ومحب الدين الطبري/ السمط الثمين/ ٣ ـ ٣٧. وانظر كذلك بنت الشاطئ/ نساء النبي/ ٦٢ ـ ٦٣، والعقاد/ الصدِّيقة بنت الصدِّيق/ ٤٧ ـ ٤٨.

قاله المستشرق كاتب المقالة.

ثم يتمادى زيليجزون فيدّعي أن عائشة كانت ذات سلطان شديد على النبي عليه السلام وأن الذي وضع حداً لذلك هو حادث الإفك[٢٦]. ولا ندري أي سلطان يتحدث عنه ذلك المستشرق. لقد كان النبي يحب زوجته، التي كانت تستأهل ذلك الحب لإيمانها واستقامة خلقها وجمالها وذكائها وصغر سنها ولكونها ابنة حَمٍ كريم وأخ عزيز هو أول من آمن به من الرجال وصديقٍ وفيّ بذل ماله كله في سبيل الله. ولكن هذا الحب لا يعني أبداً أنها كانت ذات سلطان عليه. لقد كان هو النبي وهي التابعة، وكانت تغار عليه أشد الغيرة[٢٧] حتى من خديجة المتوفاة رضي الله عنها. وفوق هذا فقد امتثلت للقرآن الكريم الذي نزل على زوجها المحبوب فلم تتزوج بعد وفاته صلى الله عليه وسلم[٢٨] رغم أنها عاشت بعده عشرات السنين ورغم أنه لم يكن لها منه ولد يمكن أن يقال إنها قد وهبت حياتها لتنشئته وتربيته فلم تُرِدْ أن يشبّ في كنف زوجٍ أمّ. وقبل ذلك خيّر النبي عليه السلام زوجاته، ومنهن عائشة، بين أن يرضين بالقليل الذي يجدنه في بيته وبين أن يمتعهن ويسرح كل واحدة منهن إلى بيت أبويها تسريحاً جميلاً، وبدأ بعائشة يسألها طالباً إليها أن تستشير أبويها في الأمر، فجاءه جوابها على الفور قاطعاً حاسماً أنها اختارت البقاء معه ولن تستشير في ذاك أحداً[٢٩]. فأيهما إذن كان صاحب السلطان على الآخر؟

---

(٢٦) ١/٢٥.

(٢٧) انظر مثلاً محب الدين الطبري/ السمط الثمين/ ٥٣ ـ ٥٤، حيث بلغت غيرتها عليه من حفصة أن تمنت أن تلدغها عقرب أو حية.

(٢٨) الأحزاب: ٥٣.

(٢٩) ابن سعد/ الطبقات الكبرى/ ٨/ ١٨٠، والبخاري/ كتاب الطلاق، ومحب الدين الطبري/ السمط الثمين/ ٦٢ ـ ٦٣، و«أسباب النزول» للسيوطي/ سبب نزول الآية ٢٨ من «الأحزاب».

أما حادثة الإفك فإنها إن سببت للنبي قلقًا عددًا من الأيام فلم تترك أي أثر في نفسه بعد نزول الوحي ببراءة زوجته التقية الحصينة الشريفة التي تنتمي إلى واحد من أعرق البيوتات القرشية. والبرهان على ذلك أنه عليه السلام لما مرض مرض وفاته أحب أن يمرّض في حجرة عائشة، وأحست زوجاته رضي الله عنهن برغبته تلك فنزلن لعائشة عن هذا الشرف(٣٠). فأين فقدان عائشة لمكانتها التي كانت لها في قلب زوجها؟

ويسمي شاخت حادثة الإفك «مغامرةَ عائشة السيئةَ السمعة:A`isha`s notorious adventure»(٣١). وهي عبارة سخيفة من مستشرق سخيف، إذ أين المغامرة هنا؟ أما أن بعض المنافقين قد طاروا بهذه الحادثة وطنطنوا وأجلبوا وأرادوا تشويه سمعة الصديقة بنت الصديق فهذا قد حدث. لكن تسمية ذلك بأنه مغامرة هي قلة عقل، لأنها على الأقل اتهام في العِرْض بلا أي دليل. والمفروض أن شاخت رجل متحضر يعرف القانون، فهل يجوز في قانون المتحضرين اتهام سيدة في عرضها

(٣٠) سيرة ابن هشام/ ٦٤٢/٢ ـ ٦٤٣، والسمط الثمين/ ٦٣ ـ ٦٤، وبنت الشاطئ/نساء النبي/ ١٠١.

(٣١) ٦٥٨/١/ مادة «زنى». وتتلخص حادثة الإفك في أن الجيش الإسلامي في طريق عودته من غزوة بني المصطلق التي كانت عائشة تصاحب الرسول عليه السلام فيها قد توقف ليلاً للراحة. وحدث أن عائشة ذهبت لتقضي حاجتها، ولكنها لما عادت وجدت أن عِقدها قد ضاع فرجعت تبحث عنه. وفي ذلك الوقت تحرك الجيش وفي ظنّ قائد الجمل الخاص بأم المؤمنين أنها في هودجها، فخُلِّفت وحيدة في الصحراء حيث بقيت تنتظر النجدة، التي أرسلها الله إليها في شخص جندي كان متأخرا عن سائر الجيش. فلما تعرف عليها تقهقر حتى ركبت ناقته وأخذ هو بزمام الدابة حتى وصل إلى المدينة بعد بزوغ النهار. فماذا بالله في هذه الحادثة مما يمكن أن يشين السيدة عائشة رضي الله عنها؟ وما الذي كان ينبغي عليها أن تفعل غير الذي فعلته؟

دون أي موجب؟ وقد كنا نود أن يربأ شاخت وزملاؤه من المستشرقين عن ذلك ويكتبوا برجولة واحترام لأنفسهم. والسيدة عائشة لا تحتاج إلى دفاع عن عفتها وتقواها وإجلالها لزوجها ونبيها وإخلاصها له في محضره ومغيبه. وقياس هذه السيدة المصونة على نسوتهم في أوربا وأمريكا خطأ فادح، فإن هؤلاء لا يعرفن استعفافًا ولا عصمة، والتفريط في العِرْض عندهن لا يزيد عن مضغ قطعة من اللبان ويصقها. أما عائشة رضي الله عنها ففي أفق آخر رفيع كريم.

ومعروف أن الذي تولى كِبْرَ هذا الإفك هو عبد الله بن أُبَيّ بن سلول[٣٢]، رأس النفاق في المدينة، الذي كان يكره النبي عليه السلام ودينه أشد بغض وأسَمَّه بسبب أنه كان على وشك أن يتوَّج رئيسًا على أهل يثرب قبل هجرة الرسول إليها لولا دخول زعماء الأوس والخزرج في الإسلام عند العقبة في مكة واتفاقهم معه صلى الله عليه وسلم على أن يهاجر إليهم. ولم يقف ابن سلول قط موقفًا رجوليًا، وكان دائمًا يثير الفتن والشغب ويأخذ جانب أعداء الإسلام[٣٣]، فليس من الغريب أن يثير هذا المنافق المحنق الكاره تلك الفتنة الحقيرة. ومع ذلك كله فإن الرسول ظل يعامله بكرم ولطف ويجامله في كل مناسبة. وقد عرض ابنُه عليه صلى الله عليه وسلم أن يقتله ويريح المسلمين والإسلام من شره فكان ردّ النبي الكريم: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[٣٤]. وعندما كان ذلك الرجل في النزع الأخير وأرسل يطلب ثوب رسول الله ليكفَّن فيه لم يبخل عليه النبي بما طلب، وزاد فصلى عليه رغم المعارضة الشديدة التي لقيها من بعض المسلمين ورغم نزول الوحي بأنه لو صلى

(٣٢) انظر مثلاً سيرة ابن هشام/ ٢/٣٠٠.

(٣٣) السابق/ ٢/٤٨، ٦٤، ١٩١، ١٩٤ ـ ١٩٥، ٢٩٠ ـ ٢٩١، ومغازي الواقدي/ تحقيق د. مارسدن جونز/ ١/١٧٧، ٢١٦، ٣٧٠، و٢/٤١٥.

(٣٤) سيرة ابن هشام/ ٢/٢٩٢ ـ ٢٩٣.

عليه سبعين مرة فلن يغفر له الله، قائلاً: «لو أعلم أني زدت على السبعين غُفِر له لـزدت»[٣٥]. فانظر الفرق بين حقد ابن سلول على النبي وتشنيعه على أحب زوجاته إليـه[٣٦] وبين لطف الرسول به وصبره الواسع عليه ومسامحته إياه بل وصلاته عليه واستغفاره له! ومع ذلك يطير المستشرقون بغرية هذا المنافق ظانين أنهم يستطيعون تلويث سمعة أهل الرسول، وهيهات. وصدق اللهالعظيم: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[٣٧]!

وفي مادة «أبو بكر» نقرأ وصف كاتبها لإيمان الصدِّيق، رضي الله عنه، بأنه «إيمان أعمى : blind faith»[٣٨]. والحق أنه كان عند الصدّيق إيمان قوي بصدق الرسول عليه السلام لا يتزعزع وبأنه يتلقى الوحي من السماء وأن كل ما يشير به أو يقرره هو أمر مبارك ينبغي عدم المخالفة فيه. لكن هذا شيء، والقول بأنه «إيمان أعمى» شيء آخر. فقد كان، رضي الله عنه، ذكيًا فاهمًا للحياة والناس مجرّبًا. وكان إلي جانب ذلك يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم منذ الجاهلية عن قرب، وقد خبره في كل أحواله وعرف مدى صدقه وطهارة نفسه وضميره، فلما كاشفه بأمر النبوة لم يُعَتِّم أن أسلم. فالمسألة مسألةُ مَعْرفة بالرسول وثيقة جعلته لا يتردد أو يتذبذب أو يخالف عن أمره صلى الله عليه وسلم، إيمانًا منه أن السماء معه في كل خطوة يخطوها وأن الله مباركٌ جميع ما يعمل. فهذا كل ما هنالك. وقد كان النبي عليه السلام من جانبه يقربه إليه ويستشيره ويعرف له فضله. فالاحترام والحب كانا متبادلين.

(٣٥) السابق/ ٢/ ٥٥٢.

(٣٦) بعد خديجة بطبيعة الحال.

(٣٧) الإسراء: ٨٤.

(٣٨) ٨/ ١.

هذا، ولا أفهم ماذا يقصد الكاتب بقوله في هذه المادة أيضًا إن أبا بكر قد استطاع عدة مرات أن يكبح جماح الرسول من الاندفاع في تصرفات هوجاء[٣٩]. ذلك أن تاريخ صحبة الصديق للرسول معروفة جيدًا لكل إنسان، وليس فيها ما يمكن أن يفهم منه أي شيء مما يدعيه الكاتب. وقد كان أحرى بالمستشرق أن يحدد كلامه بدلاً من هذا التعتيم الخطر. وفضلاً عن ذلك، فإن دعواه هذه تكذّب دعواه الأولى عن «الإيمان الأعمى»، فإن صاحب الإيمان الأعمى لا يكون له رأي يخالف رأي من يؤمن به أو تصرفه[٤٠]. أليس كذلك؟

ويرفض ديلاڤيدا ما ذكرته الروايات الإسلامية عن سن عمر حين أسلم، قائلاً إن تحديد عمره آنذاك بست وعشرين سنة بما يجعل عمره عند الهجرة رقمًا مستديرًا (ثلاثين سنة) هو شيء مفتعل[٤١]. وأين الافتعال في أن يكون عمره عند إسلامه ستة وعشرين عامًا ولدى الهجرة ثلاثين؟ بل ما أهمية ذلك كله حتى يقف المستشرق الإيطالي عنده رافضًا ومخمِّنًا؟ ليس هناك من أهمية لهذا الأمر إلا أنه فرصة ينثر فيها ديلاڤيدا شكوكه في مسألة من مسائل التاريخ الإسلامي، للإيحاء بأنه ما من شيء في ذلك التاريخ أهل للثقة.

ثم يقفز ديلاڤيدا بعد ذلك قفزة أخرى في الظلام والمجهول غير محسوبة، إذ يزعم أن عمر في المدينة قد بدأ يصبح، مع الرسول، المنظِّمَ الحقيقي للدولة اللاهوتية

---

(٣٩) نفس الموضع.

(٤٠) وقد رأينا كيف زعم زيليجزون في مادة «عائشة» أن أبا بكر قد أبدى عدة اعتراضات على خطبة النبي لعائشة قبل أن ينزل على رغباته، وها هو ذا بوهل يغمز إيمانه بوصفه بـ «الإيمان الأعمى». والمراد في كل الأحوال الإساءة إليه، رضي الله عنه، ضمن مخطط الإساءة إلى الإسلام ورجاله وإثارة الشكوك فيه وفيهم.

(٤١) ١/٦٠٠/ مادة «عمر».

الجديدة[٤٢]. وللمرة التي لا أدري كم نتساءل: أين الدليل؟ أين الروايات التي تقول أو يُفْهَم منها ذلك؟ إن كان البحث العلمي يقوم على مجرد الادعاءات فإنّ أَجْهَل جاهلٍ قادرٌ على أن يحتل المرتبة الأولى بين الباحثين والدارسين. إن المستشرق، كما هو بيّن، يهدف إلى الطعن في قدرة الرسول وكفاءته السياسية والإدارية. إن عمر عبقرية تنظيمية وسياسية ما في ذلك شك، لكنه إنما تفتحت مواهبه هذه وغيرها في ظل النبوة المحمدية وبتوجيهها.

كما يشير ديلاڤيدا إلى الآيات الثلاث التي وافق فيها الوحي الإلهي رأي عمر، قائلاً إنه قد تكون هناك آيات أخرى تَرْجع، مثلما ترجع هذه، إلى مبادرة عمر لكن الرواة المسلمين أهملوا ذكرها[٤٣]، وزاعمًا أن اقتراح عمر رضي الله عنه هو الذي أشعل شرارة الإلهام عند النبي صلى الله عليه وسلم[٤٤]. يقصد أن يقول إن الرسول كان يأتي بالوحي من عنده وإنه كان ينزل على ما يقترحه عمر فيجعل منه قرآنًا.

وهذه من النقاط التي يطير بها المستشرقون ويطنطنون. وقد قال مكسيم رودنسون عن هذا الموضوع في تهكم خبيث إن «عمر قد افتخر في براءة بأن ثلاثًا من نصائحه قد وافقت الوحي على نحو معجز»[٤٥]. وأنا في الواقع لست أدري مدى صحة هذه الروايات، ولكني أتساءل: لم يعتقد المستشرقون أن الوحي لا بد أن

---

(٤٢) نفس الصفحة والنهر.

(٤٣) هناك رواية أخرى بأن عمر رضي الله عنه عندما سمع الآية ١٤ من سورة «المؤمنون» تُتْلَى لأول مرة أخذته أَرْيَحِيّة الإيمان فقال موافقًا ختام الآية: «فتبارك الله أحسن الخالقين». انظر «أسباب النزول» للسيوطي.

(٤٤) نفس الصفحة والنهر.

(45) Maxime Rodinson, Mohammed, translated from French into English by Anne Carter, P. 219.

يخالف كل فكرة بشرية؟ إن البشر ليسوا شياطين، بل فيهم من روح الله كما يقول القرآن الكريم. فإذا توافقت مع الوحي أفكار بعض الصحابة الأتقياء الأنقياء الذين تشربوا الإسلام وفاض على جوارحهم وسلوكهم وألسنتهم، فما وجه الغرابة في هذا؟ أم هل كان يجب أن تغيظ السماء عمر فتخالفه في رأيه رغم صوابه في هذه المرات الثلاث؟ وماذا في أن عمر مثلاً قد أحب أن تكون زوجات رسول الله بمنأًى عن ألسنة السفهاء وأعينهم فنزل الوحي بضرب الحجاب عليهن؟ أو أن ينزل القرآن باتخاذ مقام إبراهيم مُصلًّى كما رغب عمر؟ أو أن توافقه السماء في أن على زوجات الرسول ألا يضايقنه وإلا أبدله الله خيراً منهن؟ أترى هذه من الأمور العويصة التي كانت تحيّر بال الرسول فجاء عمر فأنقذه من الحيرة وألهمه الحل؟ وعلى أية حال، فإذا كان القرآن قد وافق عمر في هذه المرات الثلاث فإنه قد خالف عمر والدنيا كلها يوم كان عمر كافراً وكان عليه أن يتحول إلى الإسلام وفعل. وكان عمر بعد الإسلام مثلاً يحلف بأبيه فنهاه النبي فانتهى(٤٦). كما أنه عليه الصلاة والسلام قد نصر مرة رأي إحدى النساء على رأي عمر(٤٧). وحتى في حجاب أمهات المؤمنين لم توافقه السماء على عدم خروجهن من البيت، بل أبيح لهن الخروج لقضاء حوائجهن(٤٨). وقد تكرر أن اقترح عمرُ قَتْلَ هذا الرجل أو ذاك لرؤيته أنه عدا طوره مع الرسول عليه السلام، ولكن الرسول كان يرده إلى الرفق(٤٩). وفي غزوة الحديبية كان عمر يعتقد أن المعاهدة التي عقدها النبي مع قريش مجحفة بالمسلمين، ولكن النبي أصر على

(٤٦) انظر صحيح البخاري/ ٥١/٤، و«نيل الأوطار» للشوكاني/ مجلد ١/ حـ ٢٩٦/١.

(٤٧) البخاري/ ٥٤/٣.

(٤٨) السابق/ ٢٦٦/٣.

(٤٩) انظر مثلاً البخاري/ ٧/٤، ١٩٩.

موقفه، ثم ندم عمر بعد ذلك ولام نفسه(٥٠). وقد ارتفع مرة صوته هو وأبي بكر في حضرة النبي في خلاف بينهما فنزل الوحي ينهي المؤمنين عن ذلك، فكان عمر بعدها إذا خاطب النبي خافت من صوته كأنه يُسِرّ إليه بشيء(٥١). كما كان عمر رضي الله عنه يقبّل الحجر الأسود رغم اقتناعه بأنه مجرد حجر لا يضر ولا ينفع، وكان يفعل ذلك لا لشيء سوى أن الرسول كان يقبّله(٥٢)... وهكذا.

وإن الإنسان ليضحك من موقف أولئك المستشرقين الذين يعضون بالنواجذ على مثل هذه الموافقات بين عمر ووحي السماء كأنهم قد عثروا على جريمة. فماذا يقولون إذن في أقوال البشر التي حكاها القرآن، كقول المنافقين عن الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾(٥٣)، وقولهم: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾(٥٤)، وقول اليهود عن رب العزة جل جلاله: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾(٥٥)، و﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾(٥٦)، وقول الحواريين لعيسى عليه السلام: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ﴾؟(٥٧) أتراهم سيقولون إن محمداً قد أخذ هذه الأقوال وضمّنها قرآنه مدعيًا أنها وحي؟ أليس ذلك هو الحمق بعينه وسخف العقل؟ أما قول ديلاڤيدا إنه قد تكون هناك آيات

(٥٠) انظر مغازي الواقدي/ ٦٠٦/٢ ـ ٢٠٧، وسيرة ابن هشام/ ٣١٦/٢ ـ ٣١٧. وكان عمر من الذين وقعوا على المعاهدة بوصفهم شهودًا عليها (ابن هشام/ ٣١٩/٢).

(٥١) البخاري/ ٢٦١/٤.

(٥٢) تنوير الحوالك على شرح مُوَطَّأ مالك/ ٣٣٤/١.

(٥٣) التوبة: ٦١.

(٥٤) المنافقون: ٨.

(٥٥) المائدة: ٦٤.

(٥٦) آل عمران: ١٨١.

(٥٧) المائدة: ١١٢، ١١٤.

أخرى في القرآن ترجع إلى اقتراح عمر لكن المسلمين لم يذكروها فهو كلام لا يُرَدُّ عليه لأنه بلا دليل. والمسألة، كما رأينا، ليست لها هذه الخطورة التي يحاول أن يوهمنا الكاتب بوجودها، ولا تؤدي إلى شيء من النتائج التي يقفز إليها.

على أن مزاعم ديلاڤيدا لا تقف عند هذا الحد، بل ما زالت في جعبته أشياء أخرى تذهب بصبر الحليم لما فيها من كذب وافتراء. إنه يزعم أن عمر هو الذي شرع صلاة التراويح في رمضان وكذلك الحج ورجم الزاني المُحْصَن، وأنه لم يتورع في هذه المسألة الأخيرة عن أن يضيف إلى القرآن آية لم يكن لها فيه وجود(٥٨).

فأما بالنسبة لصلاة التراويح فقد كانت معروفة منذ عهد النبي، الذي كان يؤمهم فيها، ثم خاف إن هو داوم معهم عليها أن يُفْرَض أداؤها. ولما تولى عمر الخلافة وجد الناس يصلونها متفرقين، فجمعهم على إمام واحد(٥٩). فهذا كل ما فعله عمر. أما الحج فلا شك أن من الجنون قول ما قاله ديلاڤيدا. ومثله رجم الزاني المُحْصَن، فقد عاقب النبيُّ بهذه العقوبة ولم يأت بها عمر من عنده. كذلك فدعوى إضافة عمر إلى القرآن آية لم تكن فيه هي دعوى واسعة جداً جداً، وتُبَرْهِن على أن القوم في محاربتهم للإسلام على استعداد للذهاب إلى أقصى مدى من الافتراء المسعور. وكل ما جاءت به الروايات، إذا صحت، هو أن عمر قد ذكر أنه كانت هناك

---

(٥٨) ١/٦٠١.

(٥٩) البخاري ومسلم وموطأ مالك. وانظر أيضاً ابن الجوزي/ مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب/ تحقيق د. زينب إبراهيم القاروط/ ٦٣ ـ ٦٤. وهذا معنى قولهم إنه أول من سنّ قيام رمضان، التي ربما استند إليها ديلاڤيدا في زعمه الخاطئ (انظر المرجع ذاته، وهو مأخوذ عن ابن سعد/ الطبقات الكبرى/ ٢٨١/٣). وأدق من هذا أن نقول إنه «أول من جمع الناس على التروايح في رمضان» كما جاء في «أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر» لعلي وناجي الطنطاوي/ ٢١٥. وممن تناول هذه المسألة ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

آية كانوا يتلونها على أيام النبي عليه السلام، وهي: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة». ولم يضفها هو إلى القرآن ولا أضافها أحد من المسلمين، لأن أحداً غيره لم يتذكرها(٦٠). فلماذا الكذب العاري على هذا النحو؟

وفي الترجمة لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد ربطاً بين مسارعته إلى الإسلام وبين القول بأن ديار قومه كانت تقع في منطقة يظهر فيها النفوذ اليهودي ويكثر فيها من تنصروا. والمعنى من وراء هذا الربط واضح، وهو أنه إذا كان قد أسلم فالبركة في هذه التأثيرات اليهودية والنصرانية. ثم يمضي المترجم فيدعي أن تأثيره على التطور الديني عند محمد ربما كان كبيراً(٦١).

وأرجو ألا يغيب عن أعيننا كلمة «ربما» هذه التي يكثر المستشرقون من استعمالها في بداية بثهم لتشكيكاتهم وافتراءاتهم ظناً منهم أنهم يستطيعون أن يقفزوا منها في غفلة من القارئ إلى تقرير دعاواهم وكأنها حقائق مسلمة أو على الأقل موثّقة تنهض على دليل.

والسؤال هو: من أين للكاتب دعواه بتأثير زيد على الرسول عليه السلام؟ والجواب: لا أين، فهذه بضاعة المستشرقين فيما يخص الكلام عن الرسول والقرآن والإسلام : الدعاوي، والدعاوي وحدها، أما الإثبات فهم لا يعنّون أنفسهم به، لأنهم أكبر من أن يطالبهم أحد بدليل، مع أن العلم للأسف لا يعرف هذه الاعتبارات ولا يفهم إلا الدليل والبرهان. على أية حال، أليس من المضحك أن يتابع المؤثَّر المتأثر؟ ثم كيف فات هذا المدعي أن محمداً عليه السلام قد هاجم اليهودية والنصرانية وذكر العبث والتحريف في كتبهما وعقائدهما؟ كيف بالله لم يتنبّه إلى هذا قبل أن يدعي أن زيداً قد سارع إلى الإسلام بسبب إتيانه من بيئة يبرز فيها الأثر اليهودي

(٦٠) انظر مثلاً طبقات ابن سعد/ ٣/٣٣٤.

(٦١) ١/٦٥١/ مادة «زيد بن حارثة».

والنصراني؟ بل كيف فاته أن زيداً قد وقع للرسول عليه السلام وهو طفل صغير[٦٢] قبل أن يستطيع التنبه إلى مثل هذه الأمور؟ ثم كيف كان الأثر اليهودي والنصراني هنا عاملاً مساعداً على إيمان زيد برسالة محمد عليه السلام وكان نفس ذلك الأثر عاملاً مثبّطًا عند الملايين من العرب وغير العرب من يهود ونصارى؟ وكيف سكت الكتاب المسلمون عن هذه النقطة في حياة زيد وهُمْ دَأْبُهم ذِكْرُ كلّ شيء عن الصحابة والمسلمين الأوائل، كما فعلوا مع سلمان الفارسي مثلاً وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل؟ ومن عجائب الأقدار أن يُسْتَشْهَد زيد على أيدي «النصارى» في وقعة مؤتة!

وأخيرًا، فإن هذه أول مرة نسمع فيها أن زيداً هو أحد الذين أثروا في النبي عليه السلام أو علّموه. لقد اتهمه الكفار بالتعلم من هذا أو ذاك من الناس، لكنهم لم يذكروا زيداً قط، إلى أن جاء المستشرقون في آخر الزمان واكتشفوا هذا السر الخطير! ومن يدري، ربما كان السبب في تفضيل زيد البقاء مع محمد على الرجوع مع أهله، الذين أتوا يستردّونه منه (وكان ذلك قبل البعثة) أنه كان يرى أن مهمته في تعليم محمد وإعداده للنبوة لم تنته بعد! ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ولقد كان لزيد مشاركة وافرة في غزوات الرسول عليه السلام، وكان له في بعضها القيادة. وقد كانت نهايته الاستشهاد في إحدى هذه المعارك كما قلنا. فهل

(٦٢) كان عنده، عندما وهبته خديجة للرسول عليه السلام، ثماني سنوات. فإذا عرفنا أنه قد وقع في السبي قبل ذلك بزمن، أي أنه حين فارق أهله وبيئته التي يزعم هذا المستشرق أنها كانت خاضعة لتأثيرات يهودية ونصرانية. كان أصغر من ذلك، تبين لنا سخف كيد الكاتب وسذاجته. وفي أخبار زيد يُرْجَع إلى ترجمته في «الإصابة» لابن حجر، و«الاستيعاب» لابن عبد البر، وإلى سيرة ابن هشام/ ٢٤٧/١ ـ ٢٤٩، ٩٧٨، و٣٧٣/٢ وما بعدها، و«شهداء الإسلام في عهد النبوة» للدكتور على سامي النشار/ ١٤٧، وما بعدها، و«صور من حياة الصحابة» للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا/ ١١٧ وما بعدها، و«أسامة بن زيد حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حِبّه» للدكتور وهبة الزحلي/ ١٩ ـ ٢٤.

يمكن أن يصدق عاقل أن يرمي هذا الرجل بنفسه في المهالك من أجل دعوة كان هو، على رأي المستشرقين، صاحب فضل كبير في التطور الروحي والديني لصاحبها؟ ليس ذلك فقط، فقد كان ابنه أسامة يشارك في الغزوات وكان تحت إمرته في غزوة مؤتة، التي استُشهد هو فيها. أي أنه لم يكتف بإلقاء نفسه في المهالك بل كان يلقي بفلذة كبده أيضًا.

وفي ترجمة كعب بن مالك نرى ادعاءاتٍ من لون آخر، ولكن الهدف هو نفس الهدف: الإساءة للإسلام ورسوله، إذ يزعم بوهل (وهو من أشد المتعصبين على الإسلام والمبغضين لرسوله صلى الله عليه وسلم والمفترين عليه) أن الرسول قد وظّف كعبًا وابن رواحة وحسّانًا في تمجيد أعماله الحربية والرد على شعراء المشركين، وأن كعبًا بعد ندم شديد من جانبه على عدم اشتراكه في غزوة مؤتة «قد حصل على غفران النبي». يشير بوهل إلى الآية ١١٨ من سورة «التوبة»(٦٣).

والذي يقرأ من الغربيين كلام بوهل عن توظيف الرسول عليه الصلاة والسلام لأولئك الشعراء الثلاثة سوف يتخيل الرسول عليه السلام وكأنه ملك يعيش في القصور عيشة الترف والاستبداد وحوله حاشية من رجال الحرب والمهرجين وكذلك من الشعراء الذين مهمتهم تسجيل معاركه الحربية وتمجيده بكل سبيل على عادة الشعراء الذين يلجأون إلى التهويل والمبالغات والكذب. ومحمد عليه السلام هو أبعد رجال السياسة والحرب عن كل هذا، فقد كان نبيًا ذا رسالة، كما كان متواضعًا معتدلاً لا يرتاح كثيرًا للمديح، وبخاصة المديح المبالغ فيه، ولا يشجّعه. والذي يرجع إلى دواوين هؤلاء الشعراء يلحظ أن حسانًا كان شديد الفخر بالأنصار عامة وبقومه الخزرج خاصة، وذلك إلى جانب تحمسه للإسلام وهجائه للكافرين وتوعدهم والتهكم بهم، وأن كعبًا وعبد الله بن رواحة كانا يتحدثان في المقام الأول عن الدين الجديد

(٦٣) ١/١٩١/ مادة «كعب بن مالك».

الذي أنقذهم الله به من ضلال الكفر وعن الجنة والنار وما إلى ذلك. وهذا كله أبعد ما يكون عما يدعيه الكاتب كذبًا من أنهم كانوا موظفين عند محمد لتمجيد أعماله الحربية. إن الرسول عليه السلام لم يوظف أحدًا، بل هؤلاء الشعراء هم الذين انْبَرَوْا بدافع من إيمانهم وغيرتهم على دينهم ليردوا على شعراء الوثنية سهامهم المسمومة، دفاعًا عن الإسلام ونصرة الله. وكان الرسول من جانبه يشجعهم ويحضهم على ذلك الدفاع وهذه النصرة. جاء في «الأغاني» أنه قيل للرسول عليه السلام إن أبا سفيان بن حرب يهجوه، فقام ابن رواحة طالبًا من الرسول أن يأذن له في الرد عليه فأذن له، ثم تبعه كعب بن مالك طالبًا منه الإذن بالرد عليه فحصل عليه هو أيضًا. وفيه كذلك أنه بعد انهزام الكفر في غزوة الخندق بشَّر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بأن المشركين لن يغزوهم بعد ذلك ولكنهم سيؤذونهم بالشعر والهجاء، ثم سألهم: فمن يحمي أعراض المسلمين؟ فقام ابن رواحة ثم تبعه كعب يعلن كل منهما أنه سيفعل، فأثنى الرسول على شعرهما.(٦٤)

أما آية «التوبة» فهي تعلن غفران الله، لا الرسول، لكعب رضي الله عنه. إن محمدًا لم يدَّع يومًا أنه يملك توزيع صكوك الغفران أو الإدانة كما كان باباوات النصارى يفعلون مع الملوك والعوامّ جميعًا في العصور الوسطى، بل قال عن نفسه بكل تواضع ونبل إنه لا يدري ما سيفعله الله به يوم القيامة وإن كل ما يرجوه هو أن يتغمده سبحانه وتعالى برحمته(٦٥).

وفي مقالة عن «الأنصار» لركندروف نرى ادعاءين عجيبين: أولهما قوله إن الرسول عليه السلام، بجعله المسيح يسمي حواريه «أنصار الله» (آل عمران/ ٥٢، والصف/ ١٤)، إنما كان يلعب فيما يبدو على المشابهة بين كلمة «أنصار» وكلمة

(٦٤) الأصفهاني/ الأغاني/ ترجمة كعب بن مالك.

(٦٥) البخاري/ ٢١٢/٤، ٢١٥.

«نصارى»[٦٦].

وللحقيقة فإن عيسى، حسبما جاء في القرآن، لم يُسَمِّ حواريه «أنصار الله» بل سألهم قائلاً: «من أنصاري إلى الله؟» فكان جوابهم: «نحن أنصار الله»، فهم الذين سموا أنفسهم بذلك لا هو. أما اللعب المزعوم على التشابه بين «أنصار» و«نَصَارَى» فهو وهم لا وجود له إلا في ذهن المؤلف لأن النصارى لا يذكرون عادة في القرآن إلا بالذم ويوصفون بالضلال والكفر. أما الحواريون فإن القرآن يُثْنِي عليهم ويمدح إيمانهم. وهذا طبيعي، فلم تكن النصرانية قد انحرفت إلى الشرك في أيامهم، وكان عيسى عندهم (كما هو في الواقع) مجرد عبد لله ورسول. وهذا علاوة على أن جذري كلمتي «أنصار» و«نصارى» مختلفان، فالأولى مشتقة من «نصر» والثانية ترجع إلى مدينة «الناصرة» التي يُنْسبَ النصراني إليها نسبًا على غير القياس. وليس هذا بالذي يفوت الرسول عليه السلام، فإنه كان يعرف لغته أحسن معرفة، ولم يكن كمستشرقينا الذين يخبطون على غير هدي ويضعون أنفسهم في مأزق حرجة ليسوا أكفاءً لها. نقول هذا رغم أننا نؤمن بأن القرآن من عند الله، ولكننا نريد بمسايرة مزاعم هؤلاء الناس أن نبين للقراء التواء منطقهم وفجاجة النتائج التي يَطْلُعون بها علينا.

وثاني هذين الادعاءين هو اتهامه الأنصار بانعدام التحمس في البداية للقيام بواجبهم العسكري وزعمه أن ذاك كان مصدر قلق شديد للنبي عليه السلام[٦٧].

وهذا كلام لا أصل له. والصواب هو أن النبي عليه السلام حينما خرج قبيل بدر بفريق من المسلمين لملاقاة العير ثم تطورت الأمور في اتجاه الحرب أراد أن يستوثق من جماعة الأنصار الذين خرجوا معه وهل هم على استعداد للاشتراك في

(٦٦) ١/٤٣.

(٦٧) ٢/٤٣.

الحرب إذا وقعت. ذلك أنه ظن أن الأنصار لا ترى أن عليها نصرته إلا ممن يهاجمه في المدينة نفسها، فقام عندئذ سعد بن معاذ وأعلن في حسم أن الأنصار، سواء منهم الذين خرجوا مع النبي لأخذ قافلة قريش أو الذين بَقُوا في المدينة لعدم توقُّع أحد أنه ستكون هناك حرب بين الرسول وقريش، هم جميعًا على استعداد لأي شيء يأمرهم به النبي حتى لو طلب منهم أن يخوضوا البحر. فعندئذ سُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشّرهم وأمرهم بالمسير لملاقاة العدو. ثم كانت معركة بدر، التي خاضها المهاجرون والأنصار جنبًا لجنب(٦٨).

ومن هذا نرى أنه لا الأنصار كانوا غير متحمسين للقيام بما سماه الكاتب واجبهم العسكري، ولا النبي كان قلقًا على الإطلاق بسبب هذا الأمر، بل سارع الأنصار من فورهم حينما أحسوا أن الرسول يريد أن يعرف موقفهم فأعلنوا أنهم مستعدون حتى لخوض البحر لو طلب الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ذلك، ثم أتبعوا القول بالتنفيذ. وقد كان عددهم في بدر أكبر من المهاجرين بكثير، إذ بينما لم يتعد المهاجرون ثلاثة وثمانين رجلاً، نجد أنه قد اشترك من الأنصار مائتان وواحد وثلاثون: منهم واحد وستون أَوْسِيًا، ومائة وسبعون خزرجيًا، وذلك حسب الإحصاء الذي في سيرة ابن هشام(٦٩).

---

(٦٨) انظر «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعروة بن الزبير/ جمع وتحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي/ ١٣٦ وما بعدها، و١٤٧ وما بعدها، و«المغازي النبوية» لابن شهاب الزهري/ ٦٣ وما بعدها، و«كتاب المغازي» للواقدي/ تحقيق د. مارسدن جونز / ١/ ٤٨ وما بعدها، و١٥٢ وما بعدها، وسيرة ابن هشام/ ١/٦١٥، ٦٧٧ وما بعدها، و٦٨٦ وما بعدها.

(٦٩) انظر سيرة ابن هشام/ ١/٧٠٦. وقد أورد ابن هشام بالتفصيل أسماء المشاركين في بدر من كل من الفريقين في الصفحات من ٦٧٧ إلى ٧٠٦. وانظر في ذلك أيضًا مغازي عروة بن الزبير/ ١٤٧ ـ ١٥٩، ٢٣٨، ومغازي الواقدي/ ١/١٥٢ ـ ١٧٢.

ويعلن بوهل تعاطفه مع المنافقين، الذين يدعي بهتانًا وافتراءً أنهم كانوا محرومين من حقوقهم(٧٠)، رغم أنه على طول المادة التي أسندت إليه الموسوعة كتابتها عنهم لم يستطع أن يقدم مثالاً واحدًا على هذا الحرمان المدَّعَى، بل بالعكس ذكر عددًا من أفعالهم ومواقفهم الدنيئة (وذلك قبيل غزوة أحد، وفي أثناء غزوة الخندق، وقبل الانطلاق إلى تبوك)، قائلاً في لذلة شامتة إنهم كانوا من القوة بحيث إنهم قد سببوا للرسول عليه السلام أشد الحرج في المواقف العصيبة، ومعقبًا على ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصًا ألا يدفع بهم إلى معسكر أعداء الإسلام(٧١).

فأين الحرمان من الحقوق إذن؟ لقد وقف ابن أُبَيّ قائدهم مع اليهود في غزوة بني قينقاع واجترأ على النبي صلى الله عليه وسلم اجتراء سفيهًا وأسفر بعدائه له عليه السلام ولدينه وظل وراءه حتى عفا الرسول عن جريمتهم المتمثلة في اعتدائهم الأثيم السافل على كرامة إحدى حرائر المسلمين في سُوقهم وقتلهم رجلاً مسلمًا هبَّ للدفاع عنها وعن كرامتها وعرضها وخيانتهم للعهد الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين طوائف المدينة بما فيهم بنو قينقاع أن يكونوا يدًا واحدة على من سواهم وإظهارهم العداوة للمسلمين وتأهبهم لقتالهم، واكتفى عليه السلام بإجلائهم عن المدينة(٧٢).

---

(٧٠) ١/٤١١/ مادة «المنافقون».

(٧١) ٤١٠/ ٢.

(٧٢) انظر مغازي الواقدي/ ١/ ١٧٦ وما بعدها، وسيرة ابن هشام/ ٢/ ٤٧ وما بعدها. ومن قبل اجترأ ابن أبيّ على الرسول عندما نزل من فوق حماره وهو مارّ به جالسًا عند حصنه ليسلّم عليه هو ومن معه وليحدثهم في الإسلام، فرد عليه بأنه ينبغي أن يجلس في بيته ومن يُرِدْه يَأْتِ إليه حيث هو بدلاً من الطواف على الناس ومضايقتهم بحديثه عن الإسلام. انظر مغازي ابن شهاب الزهري/ ١٨٠ ـ ١٨١، وسيرة ابن هشام/ ٢/٥٨٦ ـ ٥٨٨.

وفي غزوة أحد نرى المنافقين بقيادة ابن أُبَيّ، وكانوا يمثلون ثلث الجيش، يخذلون المسلمين ويعودون أدراجهم، رغم أنه كان قد اتُّخذ قرار الخروج من المدينة وملاقاة قريش، الذين أتوا بقيادة أبي سفيان. وهذه خيانة عظمى، ومع ذلك تركهم الرسول بلا أي عقاب(٧٣). ثم يأتي بوهل فيتباكى على حرمان هؤلاء الأنذال من الحقوق.

وعندما قبل بنو النضير الجلاء عن المدينة بعد الحصار الذي ضربه المسلمون على حصونهم إثر المؤامرة الغادرة التي بَيَّتوا فيها قتل الرسول صلى الله عليه وسلم نجد ابن أبي ورفاقه يتصلون بهم ويحرضونهم على عدم مغادرة المدينة واعدين إياهم بأنهم سيحاربون النبي معهم ولن يسلموهم أبدًا. ومع ذلك لا يفكر الرسول الكريم في معاقبتهم برغم هذه الخيانة البلقاء(٧٤).

وفي غزوة الأحزاب ترك بعض المنافقين المسلمين في عز المعركة ولحقوا بديارهم خارج المدينة(٧٥). ومرة أخرى لا يفعل لهم الرسول شيئًا، ثم بعد ذلك يقال إنهم كانوا محرومين من الحقوق.

ولم يكتف المنافقون بهذا، بل كانوا يعملون على النيل من النبي عليه السلام، فوصفه بعضهم بأنه «أُذُن»، أي ساذج من السهل خداعه والتأثير عليه بالوشايات

(٧٣) انظر «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعروة بن الزبير/ ١٦٩، و«المغازي النبوية» لابن شهاب الزهري/ ٧٧، ومغازي الواقدي/ ١/ ٢١٩، وسيرة ابن هشام/ ٢/ ٦٤.

(٧٤) انظر الآيات ١١ ـ ١٧ من سورة «الحشر»، ومغازي عروة بن الزبير/ ١٦٦، ومغازي الواقدي/ ٣٦٨، وسيرة ابن هشام/ ٢/١٩١، ١٩٤.

(٧٥) الأحزاب: ١٣وما بعدها، ومغازي عروة/ ١٨٤، ومغازي الواقدي/ ٤٦٣، وسيرة ابن هشام/ ٢/٢٢٢.

الفارغة. كما أخذوا يسخرون من القرآن الكريم(٧٦). ويسامحهم الرسول هنا أيضا فلا يفعل لهم شيئًا.

كذلك ففي الوقت الذي خرج فيه كل القادرين على الحرب من المسلمين متوجهين إلى تبوك نجد المنافقين وعلى رأسهم ابن أبي يتخلفون متعللين للنبي بأعذار عجيبة لا تخلو من تهكم وسخرية. بل إن بعضهم قد خطط لقتل الرسول في الطريق، ولكنهم فشلوا. ويتركهم الرسول آنئذ فلا يفعل لهم شيئًا(٧٧).

ولابن أُبَيّ كلمة خطيرة معروفة تجاوز فيها كل الحدود أراد بها إلى إثارة الفتنة، إذ حدث في طريق العودة من غزوة بني المصطلق أن أحد المهاجرين قد اختلف مع أحد الأنصار عند الماء، فغاظ ذلك ابن أبي وقال مهددًا: ﴿ **لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** ﴾(٧٨). يقصد أنه حين يصل المدينة سوف يطرد الرسول عليه السلام والمهاجرين منها ويعيدهم إلى بلادهم. وهذه من أخطر الفتن في أي مجتمع، إذ من شأنها أن تشعل حربًا مدنية بين طوائفه. ورغم ذلك يعفو عنه النبي ولا يفعل له شيئًا.

ثم إن أحدًا لا ينسى أن عبد الله بن أبي قد تولّى كِبْرَ حديث الإفك وأخذ يشيع الاتهامات الظالمة لعِرْض أحب زوجات النبي إليه. والمشهور في الروايات وعند العلماء

(٧٦) التوبة: ٦١ وما بعدها، وأسباب نزول هذه الآيات في السيوطي والواحدي وكتب التفسير.

(٧٧) مغازي عروة/ ٢٢٠ ـ ٢٢١، وسيرة ابن هشام/ ٢/٥١٦ ـ ٥١٧، ٥٢٤ ـ ٥٢٥، و«جوامع السيرة» لابن حزم/ تحقيق د. إحسان عباس ود. ناصر الدين الأسد/ ٢٥٠ ـ ٢٥١، و«إمتاع الأسماع» للمقريزي/ ٤٤٧ ـ ٤٥٥.

(٧٨) المنافقون: ٨. وانظر مغازي الواقدي/ ٢/٤١٥ وما بعدها، وسيرة ابن هشام/ ٢/ ٢٩٠، و«جوامع السيرة» لابن حزم/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

أن الرسول لم يعاقبه على ذلك(٧٩).

وقد أخرجت هذه المواقف الدنيئة الجبانة ابن ذلك المنافق عن طوره، وكان شابًا مؤمنًا نبيلاً، فعرض على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقتل أباه ويريح الإسلام والمسلمين من شره، لكن النبي الكريم رفض ذلك وأعلن أنه سيكرمه ما بقى معهم. وقد مر ذلك في هذا الكتاب، وهو معروف للكافة.

ورغم ذلك كله يتظاهر بوهل بالحزن على أولئك المنافقين والرثاء لحرمانهم من حقوقهم. والحقيقة أنه مغتاظ أشد الغيظ من ترددهم وعدم انتهازهم الفرص التي سنحت لهم للتخلص من الرسول وتدمير الإسلام، وكذلك من تخليهم في وقت الجد عن بني النضير بعدما مَنَّوْهم الأماني وأكدوا لهم أنهم سيقفون إلى جانبهم ويحاربون النبي إن حاربهم ولن يسلموهم أبدا. فهذا هو الذي يغيظ بوهل أشد الغيظ. وليس ذلك تخمينًا مني، فقد قاله في مقالته التي نحن بصددها(٨٠). ويكفينا هذا لمعرفة موقفه ومشاعره، وهما موقف ومشاعر لا يشرفان صاحبهما، إذ يكفى أنه يتخذ جانب النفاق وأهله، والنفاق مبغوض من كل حر كريم منذ كانت الخليقة، وسيظل كذلك ما دام هناك شيء اسمه «قيم كريمة» في هذه الدنيا.

ومن المنافقين إلى مسيلمة الكذاب، الذي كتب المادة الخاصَّة به بوهل أيضًا، وتباكى فيها عليه كما تباكى على المنافقين، وافترى فيها الكذب على التاريخ كما صنع في مقالته الآنفة الذكر وفي كل مقالة له في الموسوعة.

يذكر بوهل أنه حسب الرواية الشائعة فإن مسيلمة قد ظهر كنبيّ عقب وفاة الرسول عليه السلام، ثم يعقب قائلاً إن هناك رواية أخرى تقول إنه بدأ عمله النبوي

---

(٧٩) انظر تفسير القرطبي/ ٣٠١/١٢، وإبراهيم علي سالم/ النفاق والمنافقون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودور اليهود/ ٢١٢.

(٨٠) ١/٤١١.

قبل الرسول[٨١]. وهو يتمسك بهذه الرواية مشيراً إلى ما ورد من أن أعداء الرسول قد اتهموه بأنه يتعلم من رجل من اليمامة اسمه «رحمن»، ثم يضيف أن مسيلمة كان يقول إنه يتلقى وحيه من الرحمن، بل هو نفسه كان يسمى «رحمن»، وأنه قد اقترح على الرسول عليه السلام تقسيم السلطة بينهما أو توريثه إياها بعد موته. وهو ما يعني أن مسيلمة كان يحتل في اليمامة مكانة كالتي كان يحتلها النبي في المدينة. ثم يذكر أن الأقوال المنسوبة إلى مسيلمة تشبه الوحي المكي المبكر بقِصَر جُمَله المسجوعة وأقسامه الغريبة، ولا علاقة بينه وبين القرآن المدني في شيء. ويركز بوهل على أن بني حنيفة كلهم قد حاربوا في صف مسيلمة في معارك الردة، مما يدل على أنه لم يكن نبيًا مبتدئًا في ذلك الوقت بل لا بد أن يكون قد مضى عليه في هذا العمل زمن طويل[٨٢].

وتعقيبًا على ما قال ذلك المستشرق نقول إن ما يسميه بـ «الرواية الشائعة» تذكر أن مسيلمة قد ادعى النبوة في عهد الرسول عليه السلام لا بعد وفاته، فقد طلب منه عليه السلام أن يشركه معه في النبوة وأرسل له خطابًا بهذا المعنى، وكان رد النبي الرفض المطلق[٨٣]. وهذا طبيعي، لأن أمر النبوة ليس إليه ولا إلى أحد من البشر بل إلى الله، الذي هو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

أما بالنسبة للرواية الأخرى فإن الكاتب لم يكن أمينًا في نقلها، فقد ادعى أن

---

(٨١) لا تقول الروايات إنه «ظهر كنبي» أو «بدأ عمله النبوي»، وإنما تصف الواقع فتذكر أنه ادعى النبوة. ولكن المستشرق الأمين يحرف الكلم عن مواضعه وراثةً عن أسلافه الأولين، الذين مردوا على تحريف النصوص المقدسة وتزييفها.

(٨٢) ١/٤١٦ ـ ٢/ مادة «مسيلمة».

(٨٣) انظر سيرة ابن هشام/ ٢/٥٧٦، ٦٠٠ ـ ٦٠١، والمقريزي/ إمتاع الأسماع/ ١/٥٠٦، ٥٠٨ ـ ٥٠٩، وأحمد زكي صفوت/ جمهرة رسائل العرب/ ٦٧ ـ ٦٨.

المشركين قد اتهموه عليه السلام بأنه يتعلم من رجل من اليمامة اسمه الرَّحْمن، على حين أن كل ما جاء هو أنهم حينما ذكر القرآن لهم من أسماء الله تعالى اسم «الرحمن» كان ردهم عليه أنهم لا يعرفون إلا رحمن اليمامة(٨٤). ولم يأت أنهم اتهموه

(٨٤) انظر الطبري والبغوي في تفسير الآية ٣٠ من سورة «الرعد»، والآية ٦٠ من سورة «الفرقان». وقد أحال بوهل على هذين المرجعين مدعيًا أن فيهما اتهام قريش للنبي عليه السلام بأنه يتعلم من رحمان اليمامة هذا. وهو كلام عارٍ عن الصحة تمام العُرْي. وفي ترجمة محمد حميد اللهللقرآن إلى الفرنسية يتساءل ذلك العالم الباكستاني في تعليقه على الآية ٦٠ من سورة «الفرقان»، قائلاً ما ترجمته: «هل كان اسم «الرحمن» لفظًا جديدًا (un neologisme) على العرب آنذاك؟». ويبدو أن الأمر كان كذلك بالنسبة لمشركي قريش على الأقل أو أنهم لسبب لا نعرفه كانوا يكرهون استخدام هذا الاسم. ذلك أنه قد قابلتني هذه التسمية في شعر جاهلي، كقول عمرو بن عبد الجن:

وما سبّح الرحمن في كل ليلة أبيل الأبيلين المسيح بن مريما

(خزانة الأدب/ ٣/ ٣٤٠)، وقول الأعشى:

وما جعل الرحمن بيتك في العلا بأجياد غربيَّ الفناء المحرَّم

(ديوان الأعشى/ شرح وتعليق د. محمد محمد حسين/ القصيدة رقم ١٥)، وقول سويد بن أبي كاهل اليشكري:

كَتَبَ الرحمنُ، والحمدُ له، سعةَ الأخلاق فينا والضَّلَعْ

(د. أحمد الحوفي/ الحياة العربية من الشعر الجاهلي/ ٤١٤)، وقول عمرو بن زيد بن نفيل:

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الربُّ الغفورُ

(سيرة ابن هشام/ ١/٢٢٧)، وإن كان نولدكه يفسر ذلك بأن المسلمين قد استبدلوا كلمة «الرحمن» بكلمة أخرى وثنية بدافع من تحرجهم الديني (انظر «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي»/ ترجمة د. عبد الرحمن بدوي/ ٢٦). لكنه لم يحاول أن يبين لنا الكلمة المستبدلة في نظره والتي ينبغي أن تكون اسم أحد الآلهة الوثنية، وهو ما يجعل رأيه مجرد تخمين لا قيمة له تذكر، وبخاصة أن لفظة «الرحمن» قد تكررت في الشعر الجاهلي ولم ترد مرة واحدة كما يفهم من كلامه.

بالتعلم منه. وكيف يتهمونه بذلك وهذا «الرحمن» في اليمامة، وهو صلى الله عليه وسلم في مكة يعيش بين ظَهْرانَيْهم صباح مساء لم يفارقهم، اللهم إلا مرة واحدة إلى الطائف على ما هو معروف؟ كذلك لو كان المشركون اتهموه بذلك لذكره القرآن وردَّ عليه. ولكن ليس في القرآن إلا اتهامهم له بالتعلم من بعض الأعاجم(٨٥). أما العرب فلم يقل المشركون إنه يتعلم من أحد منهم.

إذن فبوهل قد عبث بالروايات وزوّر فيها ليصل منها إلى شيء في نفسه، وهيهات! ومع هذا فسوف نمضي في مناقشة دعواه رغم ما ثبت من خيانته لأمانة العلم والقلم ورغم ما ظهر من أن الأساس الذي أقام عليه دعواه أساس لا وجود له، فنقول إنه لا يمكن أن يكون مسيلمة قد ادعى النبوة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإلا لكذّبه قومه كما كذّب النبيَّ قومُه لإتيانه إياهم بأمر جديد ليس لهم به عهد، أو لما كذبت قريش النبي لأنهم لم يكونوا ليروا في نبوته في هذه الحالة شيئًا غريبًا، بل بالعكس كانوا سيرحبون به كمنافس قَبَلي لنبي بني حنيفة. أمّا ظهور مسيلمة في قبيلته بعد أن اشتهر أمر الإسلام فهو وضع مفهوم، لأنهم رأوا في رسالة محمد مجداً قرشيًا فظنوا أنه يمكنهم إحراز مثل هذا المجد بالسير وراء مسيلمة. وإن رسالة هذا الكذاب لتؤكد ذلك، إذ ورد فيها أن «لنا نصف الأرض، ولقريش نصف

= أما عبد الله يوسف على فقد علق (في ترجمته الإنجليزية للقرآن) على الآية ١١٠ من سورة «الإسراء» بأن اسم «الرحمن» كان جدٌ بغيض بالنسبة لمشركي العرب على ما تشير الآية ٦٠ من سورة «الفرقان» والاية ٣٦ من سورة «الأنبياء»، ولذلك أبرز القرآن هذه التسمية الإلهية إبرازًا. وهذا صحيح. ونضيف إلى ذلك الآية ٣٠ من سورة «الرعد»، التي تقول إن المشركين كانوا يكفرون بالرحمن. والملاحظ أن استخدام اسم «الرحمن» في القرآن الكريم على كثرته (٥٧ مرة) يكاد أن يكون مقصوراً على الفترة المكية.

(٨٥) النحل: ١٠٣.

الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون»[٨٦].

وعلاوة على ذلك، فإن كلام مسيلمة عن حقه في شركة محمد في نبوته لقاطع في أن كذاب بني حنيفة إنما ادعى النبوة بعد النبي (وكان ذلك في أواخر حياته عليه السلام) لا قبله. قال: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك. أما بعد، فإني قد أُشركت في الأمر معك». ولو كان قد تنبأ قبل بعثة الرسول عليه السلام لتغيرت صيغة الخطاب على النحو التالي: «أما بعد، فإنك قد أُشركت في الأمر معي». أما صيغة الخطاب الحالية فليس لها معنى إلا أن محمدًا هو الأصل وأن مسيلمة قد لحق به وأُشرك معه.

ثم ماذا يقول بوهل في مجيء بني حنيفة إلى الرسول في عام الوفود وإعلانهم إسلامهم وفي صحبتهم مسيلمة؟ هل كانوا يفعلون ذلك لو أن مسيلمة قد تنبأ وآمنوا هم به وتابعوه؟

وإن الأساس الذي أقام عليه مسيلمة دعواه في النبوة ليتسق مع هذا أيما اتساق، فقد كانت حجته لقومه بعد عودته معهم من وفودهم على النبي أنه صلى الله عليه وسلم قال في حقه عندما أخبروه أن معهم رفيقًا لهم تركوه مع رحالهم: «إنه ليس بِشَرِّكم مكانًا»، وقد عنى النبي صلى الله عليه وسلم أن بقاءه يرعى شؤون الدواب لا يقلل من أهمية مشاركته في وفد قومه، لكن مسيلمة زعم أن هذا يعني موافقة محمد على إشراكه معه في أمر النبوة[٨٧].

أما اتخاذ بوهل متابعة بني حنيفة كلهم لمسيلمة في معاركه مع جيش المسلمين أثناء حروب الردة دليلاً على أنه لم يكن نبيًا مبتدئًا في ذلك الوقت بل لا بد أن يكون

(٨٦) ابن هشام/ السيرة النبوية/ ٢/٦٠٠.

(٨٧) المرجع السابق/ ٢/٥٧٦ ـ ٥٧٧.

قد مرّ عليه في ذلك الأمر زمن طويل فهو حجة داحضة، فإن كل المتنبئين قد شايعهم أقوامهم جميعهم تقريبًا في ردتهم ومحاربتهم جيوش المسلمين، ولم يقل أحد ولا بوهل نفسه بأنهم قد تنبأوا قبل الرسول عليه السلام.

كذلك هل كان النبي عليه السلام سيترك مسيلمة كل هذا الوقت الطويل دون أن ينذره بلزوم الطاعة والرجوع عن دعواه ثم يغزوه هو وبني حنيفة إن لم يدخلوا في الإسلام؟ إن الذي حدث هو أن مسيلمة قد ابتدأ يتحدث عن أنه أُشرك في الأمر مع النبي في أواخر حياته صلى الله عليه وسلم، ولم يتابعه بنو حنيفة على هذا النطاق الواسع وبهذه الجرأة إلا بعد وفاة الرسول الكريم. وقد كان أهم عضد له في ذلك هو الرجّال بن عنفوة، الذي كان في البداية من أشد المسلمين تحمسًا للدين وتفقهًا فيه وحفظًا لكتابه(٨٨).

وتبقى مشابهة الأقوال التي أُثرت عن مسيلمة للوحي المكي، وهي دليل آخر على أنه متابع للنبي عليه السلام وأنه لم يمر عليه في التنبؤ طويل وقت، وإلاّ لحاول تقليد الوحي المدني كما حاول تقليد الوحي المكي.

هذا هو القول الفصل في هذه المسألة بالوثائق والمنطق التاريخي والعقلي السليم. أما مزاعم بوهل فقد أراد بها فيما يبدو إلى هدفين: الأول زعزعة الثقة في المرويات الإسلامية وإيهام القارئ أن التاريخ الإسلامي تاريخ مجرّح. والثاني أن محمدًا إذا كان قد قال إنه نبي فإنه إنما كان يجري على سُنَّة سَلَفٍ له هو مسيلمة، ولم يكن نبيًا حقًا من عند رب العالمين.

بقيت كلمة أخيرة، وهي أن مسيلمة قد كذّب نفسه بنفسه عندما اعترف بنبوة محمد، إذ معنى هذا الاعتراف أن ما يقوله محمد في مسيلمة هو الحق لا ريب فيه

(٨٨) انظر السهيلي/ الروض الأنف/ ٤/٢٢٥، وطبقات ابن سعد/ ١/٣١٦.

ما دام رسولاً من عند الله. وقد وصفه محمد بالكذب ولم يعترف به أبداً رسولاً. كذلك ينبغي الإشارة إلى أن سجاح المتنبئة التي تزوجت مسيلمة قد عادت إلى الإسلام بعد هلاكه. وهذا دليل آخر على كذب متنبئ بني حنيفة.

وفي مادة «القدس» يقول بوهل أيضًا إنه عندما استولى ابن الزبير على مكة خاف عبد الملك بن مروان أن يقنع غريمُه الحُجَّاج الشاميين أو يجبرهم على الانضمام إليه، فمنعهم من الحج، لكنه عندما ذكّروه بأمر النبي الحاسم (يقصد وجوب الحج) أمرهم بالحج إلى صخرة بيت المقدس المقدَّسة وقرأ عليهم حديثًا للرسول يرويه الزهري المحدِّث جاء فيه أن مكة والمدينة وبيت المقدس هي جميعًا أمكنة للحج لها نفس المكانة، وإنه من أجل هذا الغرض بنى قبة فوق الصخرة التي عرج منها النبي إلى السماء. ثم أضاف أن عبد الملك عندما بنى هذه القبة قد حرص على أن تتفوق في جمالها على كنيسة القيامة، وأن ذلك يتسق مع أهدافه العامة. وقد أحال بوهل في ذلك إلى اليعقوبي والبلاذري وياقوت الحموي وابن الأثير(٨٩).

وقد بحثت هذا الأمر فوجدت أن اليعقوبي قد ذكر فعلاً هذا، وتابعه عليه بعض من جاء بعده. ولكن اليعقوبي شيعي يهمه أن يشوه صورة بني أمية ويشكك في دينهم. ولسنا نريد الدفاع عن بني أمية أو عبد الملك، ولكننا نَنْشُد الحقيقة. وقد لاحظت أن المؤرخين السابقين على اليعقوبي لم يذكروا شيئًا عن هذا الموضوع، فما الذي جعل هذا الخبر، لو أنه صحيح، يبقى طيلة هذه المدة لا يذكره أحد ثم يأتي

(٨٩) ٢/٢٧٠، و١/٢٧١/ مادة «القدس». وانظر أيضًا مادتي «المسجد الأقصى»/ ٢/٣٨٢، و«الطواف»/ ١/٥٨٦. وقد وجدت ظَفَر الإسلام خان، للأسف، يردد أيضًا هذا الكلام ويسوقه دون أن يذكر أي مصدر أو مرجع، وذلك في كتابه «تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي»/ ١٦١، رغم كل نقاط الضعف التي يعج بها ذلك الادعاء كما سنبينه في الفقرات التالية.

اليعقوبي المتوفى في عام ٢٩٢ هـ فيتحدث عنه في كتابه؟

كذلك فإن اليعقوبي قد ادعى أن الأمر قد استمر على ما صنع عبد الملك طيلة أيام بني أمية(٩٠)، مع أنه هو نفسه قد ذكر أن عبد الملك ذاته قد حج بعد ذلك إلى بيت الله الحرام، وأن الحَجّاج قد أعاد بناء الكعبة في عهده(٩١). فانظر إلى هذا التناقض الفج. بل جاء في الطبري والبلاذري وابن سعد أن الحج استمر في أيام عبد الملك كما كان(٩٢). وهذا هو الذي يتمشى مع المنطق، إذ ماذا تعني البيعة التي يدعي اليعقوبي أن عبد الملك خشي أن يأخذها ابن الزبير من حجاج أهل الشام؟ فليبايعوا بألسنتهم ولا يلتزموا بها ما داموا قد أُجْبروا عليها. هل في هذا أي مشكلة؟

ولقد كان عبد الملك من طلاب العلم والحديث قبل توليه الخلافة، وكان دينّا(٩٣). ومن غير الممكن الظن بأنه يقدم على مثل ذلك الإلحاد بهذه البساطة. ثم هل كان العلماء يسكتون على ذلك فلا يشنعوا عليه ولا يتخذه ابن الزبير سلاحًا يطعن به عبد الملك وبني أمية جميعًا؟ ولقد كان من علماء ذلك العصر عروة بن الزبير أخو عبد الله ومصعب، فلماذا لم يذكر ذلك ويفضح هذا الإلحاد في الدين؟ بل ها هو ذا عبيد الله

(٩٠) انظر تاريخ اليعقوبي/ ٢/٢٦١.

(٩١) السابق/ ٢/٢٧٣ ـ ٢٧٤. وانظر أيضًا تاريخ الطبري/ حوادث ٧٥هـ، والسيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ٢١٥.

(٩٢) انظر د. شفيق جابر أحمد محمود/ تاريخ القدس/ ٢٠٢، ود. عبد المنعم ماجد/ التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصر الخلفاء الأمويين/ ٢/١٨٩. وانظر كذلك د. محمد ضياء الدين الريس/ عبد الملك بن مروان والدولة الأموية/ ١٤٦ ـ ١٤٧، حيث يذكر ما جاء في المصادر القديمة من أنه كانت هناك في الحج أربعة ألوية: لواء لمحمد بن الحنفية وشيعته، ولواء للحرورية، ولواء لبني أمية، إلى جانب لواء عبد الله بن الزبير.

(٩٣) انظر طبقات ابن سعد/ ٥/١٧٤، و«الكامل» لابن الأثير/ ٤/١٠٣ ـ ١٠٤.

ابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين قد هاجم عبد الملك وهجاه ولجأ إلى التغزل الفاحش في أم البنين زوجة ابنه الوليد وصوَّر ذلك في هيئة منام نال فيه منها كل ما يشتهيه الرجل من المرأة(٩٤)، ورغم ذلك فليس في شعره أي شيء عن تلك الفعلة المنسوبة إلى عبد الملك عند اليعقوبي ومن شايعه. أفكان ابن قيس يفلت هذه الفرصة أو يفلتها الزبيريون فلا يحضونه على فضح عبد الملك وبني أمية بسببها في شعره؟

لقد ارتج العالم الإسلامي عندما نقل فقط القرامطة الحجر الأسود إلى هَجَر ارتجاجًا شديداً، وعُدَّ ذلك داهية الدواهي. أفمن الممكن إذن أن نصدق أن ما صنعه عبد الملك، وهو أفدح مما صنعه القرامطة عشرات المرات (لأنه هَدْم لأحد أركان الإسلام الخمسة)، قد مرّ على الضمير الإسلامي، وكان لا يزال في ذلك الوقت غضًا لقرب عهده بالرسول والوحي، دون أن يحركه ويدفع المؤرخين والعلماء إلى الكتابة عنه واستنكاره؟

والزهري، هل كان العلماء ورجال الحديث سيسكتون عن ممالأته للإلحاد فلا يشنعون عليه بل يظلون يأخذون عنه الفقه والحديث وكأن شيئًا لم يكن؟(٩٥) لقد كان الزهري من الأئمة الشجعان الذين لم يكونوا يطأطئون رؤوسهم لأحد، وكان له مع هشام بن عبد الملك موقف في منتهى القوة و الجراءة جَبَهَه فيه بما في نفسه لم يورِّ أو يوارب(٩٦). فمثل هذا العالم لا يمكن أن يمالئ عبد الملك على ذلك الإلحاد المنسوب

(٩٤) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات/ تحقيق د. محمد يوسف نجم/ ١٢١ ـ ١٢٤. وانظر تغزله أيضًا في أم البنين/ ١٤٩ ـ ١٥٠، ١٧٥ ـ ١٧٦، وفي امرأة عبد الملك نفسه/ ١٢٨ وما بعدها.

(٩٥) بالعكس أثنى عليه العلماء ثناء شديداً. انظر ما أورده د. رءوف شلبي من أقوال العلماء فيه في كتابه «السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين»/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧، ود محمد عجاج الخطيب في كتابه «السنة قبل التدوين»/ ٤٩٨ ـ ٥٠٠.

(٩٦) انظر د. رءوف شلبي/ السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين/ ٢٠٣-

زورًا إليه. وهذا كله لو صحَّ أنه كان على اتصال بعبد الملك أثناء صراعه مع الزبيريين على الخلافة. أمّا والزهري لم يتصل بعبد الملك إلا حوالي سنة ٨٠ هـ، أي بعد وفاة ابن الزبير وعودة مكة إلى يد الأمويين بسبع سنين على الأقل(٩٧)، فهذا أكبر دليل على أن ما قيل عن الزهري في هذه القضية هو كلام مزور لا يلتفت إليه.

أما بوهل فتأبى له أمانته إلا أن يعبث بالنصوص كعادته، إذ يزعم أن الرسول قد قال إن مكة والمدينة وبيت المقدس كلها أمكنة للحج لها نفس المكانة. وهذا كذب بواح، إذ كل ما جاء في الحديث هو أن الرِّحَال لا تُشَدُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد النبي بالمدينة، والمسجد الأقصى(٩٨). وشَدُّ الرحال هو الزيارة، وهذا شيء والحج شيء آخر. لكن المستشرق الأمين تأبى له أمانته إلا التلاعب بنص الحديث والعبث به حسبما يملي له هواه المريض. كذلك لا يمكن أن تكون حجة أهل الشام، في نقاشهم المزعوم مع عبد الملك، هي أن الرسول قد أمرهم بالحج إلى الكعبة، لأن ذلك ليس أمرًا من الرسول بل هو أمر إلهي نزل به القرآن الكريم، وكل ما فعله محمد عليه السلام هو أنه قد بلغ المسلمين ذلك ضمن ما بلغهم إياه من آيات الوحي الكريم(٩٩). ولكن أمانة بوهل قد أبت هنا أيضًا إلا أن توحي للقارئ الغربي أن

= ومقدمة د. سهيل زكار لمغازي الزهري/ ٢٩، ود. حارث سليمان الضاري الذي ناقش في كتابه «الإمام الزهري وأثره في السُّنَّة»، دعوى ممالأة الزهري لعبد الملك بن مروان على تحويل الناس من الحج للكعبة إلى الحج لصخرة بيت المقدس وردٌّ على هذا الهراء.

(٩٧) انظر «التاريخ الصغير» للبخاري/ ٩٣، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر/ ٣١/٤٩١، ود. مصطفى السباعي/ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي/ ١٢٨، ود. محمد عجاج الخطيب/ السنة قبل التدوين/ ٥١٢.

(٩٨) هذا هو ما جاء عند اليعقوبي/ ٢/٢٦١. بيد أن بوهل قد عبث بالنص وصاغه على هواه.

(٩٩) هذا هو نص كلامهم حسبما جاء في تاريخ اليعقوبي: «تمنعنا من حج بيت الله =

المسلمين هم أيضًا يعتقدون أن الإسلام هو من صنع محمد وأن أوامر الإسلام ونواهيه إنما هي من عند محمد.

إذن فبوهل قد طرح منطق العقل وكذلك الحاسة النقدية التاريخية وراء ظهره وعضّ مع جولدتسيهر بكل أسنانه على هذا الخبر المجرّح، لا لشئ إلا لأنه يسيء إلى الإسلام ورجاله. وليس هذا من العلم ولا تحري الحقيقة في شيء.

هذا، وقد رفض فريق من المستشرقين أنفسهم ذلك الخبر، مثل يوليوس ڤلهاوزن، الذي رأى أن اهتمام عبد الملك بتجميل المسجد الأقصى إنما هو يرجع إلى رغبته في جعله أروع مما كان بسبب قداسته في الإسلام. كما ذكر أن فكرة إحلال بيت المقدس محل مكة بالنسبة للمسلمين هي فكرة لا يمكن تنفيذها(١٠٠). وكذلك رفض هذا الخبر جُويْتن وجرابر، وذلك لما سبق أن قلناه من استمرار حج أهل الشام إلى البيت الحرام في عهد عبد الملك(١٠١).

وقد رأى المقدسي أن عبد الملك بتزيينه المسجد الأقصى إنما أراد أن يعفّى على ما يمكن أن تخلّفه كنيسة القيامة في نفوس المسلمين من أثر(١٠٢). ومع ذلك فالمؤرخون الكبار، أمثال الطبري وابن الأثير وابن عساكر وابن خلدون، يقولون إن الذي بنى قبة الصخرة إنما هو الوليد بن عبد الملك لا أبوه(١٠٣)، أي أن المسألة كلها

= المحرم وهو فرض من الله علينا؟»، لكن المستشرق الأمين قد لوى الكلام وحرّفه عن مواضعه، بالضبط كما فعل أسلاف له من قبل فضحهم القرآن الكريم.

(١٠٠) انظر كتابه «تاريخ الدولة العربية»/ ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(١٠١) انظر د. شفيق جابر أحمد محمود/ تاريخ القدس/ ٢٠١.

(١٠٢) انظر د. عبد المنعم ماجد/ التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصر الخلفاء الأمويين/ ١٨٩/٢.

(١٠٣) وقد أبرز هذه النقطة من الكتاب المعاصرين د. مصطفى السباعي (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي/ ٢١٧)، ود. محمد عجاج الخطيب (السنة قبل التدوين/ ٥٠٥).

عراك في غير معترك.

وفي الترجمة لإبراهيم الدسوقي يخطئ الكاتب في وصف «دسوق»، التي ينتسب إليها المترجَمُ ويوجَد بها ضريحه، بأنها قرية(١٠٤). والصواب أنها مدينة تجارية مشهورة، ومركز من مراكز محافظة كفر الشيخ المهمة.

وفي المادة الخاصة بـ «الشرك» يدعي بيوركمان على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه أنهم يرون كل من عداهم من المسلمين مشركين، وأنهم يعدون الاستخارة من شرك العادة(١٠٥). وهو حين يقول ذلك لا يذكر أي مرجع من مراجع القوم بل لا يذكر بين مراجع المادة شيئًا من كتابات الإمام ابن عبد الوهاب أو أي من أتباعه. وهذا غريب جدّ غريب.

وقد رجعت إلى رسائل الإمام ابن عبد الوهاب، فوجدت أحد أحفاده ينفي تكفيره للمسلمين مبينًا أن هذه فرية نُسبت إلى الشيخ وأتباعه تنفيرًا للمسلمين منهم وحثًا للدولة العثمانية على محاربتهم(١٠٦). وقد وضح هو نفسه هذه المسألة قائلاً إنه لا يكفّر إلا «من عرف دين الرسول ثم بعدما عرفه سبّه ونهر الناس عنه وعادى من فعله... وأكثر الأمة، والله الحمد، ليسوا كذلك»(١٠٧). وقد سئل عما يقاتل هو وأتباعه عليه ويكفّرون به، فقال إن «أركان الإسلام الخمسة أولها الشهادتان، ثم الأركان الأربعة. فالأربعة إن أقر بها وتركها تهاونًا فنحن، وإن قاتلناه على فعلها، فلا نكفّره بتركها. والعلماء اختلفوا في كفر التارك لها كسلاً من غير جحود. ولا نقاتل إلا ما

(١٠٤) ١/٧٠/ مادة «إبراهيم الدسوقي».

(١٠٥) ٢/٥٤٣.

(١٠٦) انظر عبد الله بن سعد الرويشد/ الإمام الشيخ محمد بن الوهاب في التاريخ/ ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

(١٠٧) السابق/ ٢/٢٠٨.

جمع عليه العلماء كلهم، وهو الشهادتان»[١٠٨].

وقد كذب من يتهمونهم بتكفير عموم المسلمين وإيجاب الهجرة إليهم على من در على إظهار دينه وتكفير من لم يكفّر ومن لم يقاتل[١٠٩]. وقد عاد الإمام رحمه الله ى هذا الموضوع في رسالة أخرى كتبها لابن السويدي أحد علماء العراق قائلاً: ما ذكرتم أني أكفّر جميع الناس إلا من اتبعني وأني أزعم أن أنكحتهم غير سحيحة، فيا عجبا! كيف يدخل هذا في عقل عاقل؟ وهل يقول هذا مسلم؟ إني أبرأ ـــى الله من هذا القول الذي ما يصدر إلا عن مختل العقل فاقد الإدراك. فقاتل الله هل الأغراض الباطلة»[١١٠].

وأما بالنسبة إلى صلاة الاستخارة فقد حاولت أن أعثر على شيء فيما كتب لشيخ ابن عبد الوهاب رحمة الله عليه يمكن أن يشتم منه ذلك ولو عن طريق ليّ لكلام إلى غير مراميه فلم أجد شيئًا. وهذا أمر طبيعي، إذ كيف يعد ابن عبد لوهاب الاستخارة من الشرك وقد ورد بها الحديث الشريف؟ وما الذي في صلاة لاستخارة مما يمكن أن يؤوّل، ولو بطريق التعسف، على أنه شرك؟ إنها نوع من لعبادة يتجه فيه المسلم إلى ربه أن يلهمه الصواب فيما هو مقبل عليه من أمر. وهو عبير عن الإيمان بالله سبحانه وأنه وحده بيده الضر والنفع وهو وحده الذي يهدي يضل والذي يعلم الغيب.

كذلك فقد بحثت عن تقسيمات الشرك عند الإمام ابن عبد الوهاب فلم أجد

(١٠٨) فتاوى ومسائل الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب/ جمعها وصححها وقابلها على صولها صالح بن عبد الرحمن الأطرم ومحمد بن عبد الرزاق الدويش/ ٩.

(١٠٩) السابق/ ١١.

(١١٠) عبد الله بن سعد الرويشد/ الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التاريخ/ ٢/ ٢٢٦.

عنده «شرك العادة» هذا الذي ذكره المستشرق كاتب المادة. لقد ذكر الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، والشرك الخفي. كما ذكر في الشِّرْكِ الأكبر: شرك الدعوة، وشرك النية، وشرك الطاعة، وشرك المحبة(١١١)، ولم يرد، ولا يمكن أن يرد، في أي نوع من هذه الشروك الاستخارة بحال.

هذا من الناحية السلبية. أما من الجهة الإيجابية فإن الإمام ابن عبد الوهاب في كتابه «مختصر زاد المعاد» قد تكلم عن هدي الرسول صلى الله عليه وسلم في آداب السفر فذكر منها الاستخارة، التي يقول بحق عنها إنه عليه السلام قد عوض بها أمته عما كان يفعله المشركون في الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام، وإنها دليل على التوحيد والتوكل، وسؤال للذي لا يأتي بالحسنات ولا يصرف السيئات إلا هو. ثم روى الحديث التالي: «إن من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله، وإن من شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله وسخطه بما قضى الله»(١١٢).

كما أنني بالمصادفة وجدت عند أبنائي كتابًا في الأدعية والأذكار صادرًا في المملكة العربية السعودية ومأذونًا بطبعه من رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد عنوانه «حِصْن المسلم من أذكار الكتاب والسنة» (جمع وتخريج سعيد بن علي بن وهف القحطاني)، وفيه صلاة الاستخارة ودعاؤها كما وردا في البخاري(١١٣).

---

(١١١) السابق/ ٢/٣٧ ـ ٣٩. وانظر في هذا الموضوع كذلك عبد العزيز المحمد سلمان/ الكواشف الجلية عن معاني الواسطية/ ٣٢٠ وما بعدها.

(١١٢) مختصر زاد المعاد/ صححه وقابله على أصوله عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ومحمد بن عبد الله السمهري/ ١٤٦.

(١١٣) حصن المسلم من أذكار الكتاب والسنة/ ٤٥ ـ ٤٦.

وأعتقد بعد هذا كله أنه قد استبان للقارئ مدى التضليل فيما كتبه ذلك المستشرق.

وفي المقالة المخصصة لمحمد عبده يفتري شاخت على ذلك الإمام فرية عظيمة، إذ ادعى عليه القول بأن مهمة الأنبياء هي تربية أخلاق العامة وأن التعاليم والوصايا التي يأتون بها إنما هي لهؤلاء وليست للخاصة(١١٤). وبعد أسطر نجد شاخت يقول إن محمد عبده كان يتمسك بالعبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج(١١٥). وفي هذا من التناقض ما فيه، فها هو ذا محمد عبده، الذي هو من خاصة الخاصة، يتمسك بما جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم من عبادات ولا يراه ملزماً للعوام وحدهم كما يزعم ذلك المستشرق.

وفوق ذلك، فقد كان ينبغي أن يشير شاخت عند هذه النقطة إلى مصدرها من كتابات محمد عبده، ولكنه لم يفعل واكتفى بإرسال دعواه إرسالاً. وقد حفزني هذا إلى إعادة النظر في كتابات الإمام فوجدته يقول عكس ما يدعي شاخت. وهأنذا أسوق طائفة من تلك الأقوال بنصّها أو ملخصة. جاء في «رسالة التوحيد»: «وليست عقول الناس سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة. فهم، وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة، فليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة، وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدي نبوي، ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى اتباعه.

(١١٤) ٢/٤٠٦.

(١١٥) ١/٤٠٧.

وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن يُنْظَر منه إلى الجلال الإلهي. ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده، وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما. ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور العبادات، كما يرى في أعداد الركعات وبعض الأعمال في الحج في الديانة الإسلامية، وكبعض الاحتفالات في الديانة وضروب التوسُّل والزهادة في الديانة العيسوية. كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه، ويعلم الله أن فيه سعادته. لهذا كله كان العقل الإنساني محتاجًا في قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له في الحياتين إلى مُعِينٍ يستعين به في تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة، وبالجملة في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بني جنسه ليفهم منه أو عنه ما يقول، وحتى يكون ممتازًا على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عُرِف في العادة وما عُرِف في سنة الخليقة، ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله، الذي يعلم مصالح العباد على ما هي عليه، ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغي أن يُعْرَف منها، والحياة الآخرة وما أُعِدّ فيها، فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير مُعِينًا للعقل على ضبط ما تشتَّتَ عليه أو دَرْك ما ضَعُفَ عن إدراكه. وذلك المعين هو النبي صلى الله عليه وسلم»(١١٦).

«يجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلاً من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين

(١١٦) رسالة التوحيد/ ٨٥ ـ ٨٦.

لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لأحكامه في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفي مثالب أفعال وخلائق ينهاهم عنها، وأن يعتقد بوجوب تصديقهم في أنهم يبلّغون ذلك عن الله، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه، وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليهم كتبًا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخير عنه، ومن الحدود والأحكام التي عَلِم الخير لعباده في الوقوف عندها، وأن هذه الكتب التي أنزلت عليهم حق، وأن يؤمن بأنهم مؤيَّدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية»(١١٧).

وفي موضع آخر من هذا الكتاب نجده يتحدث عن مسايرة الأديان لمستوى البشر وتدرجها في الأخذ بأيديهم في طريق التربية الروحية والخلقية إلى أن جاء الإسلام الذي يمثل آخر مرحلة فيها ويوافق استعدادات البشرية بعد أن وصلت إلى آخر تطور لها، إذ يخاطب العقل والعواطف معًا، وإذ من السهل فَهْم عباداته وما ينطوي فيها من تنزيه وتوحيد، على عكس «عبادات أقوام آخرين ضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السرّ للتنزيه والتوحيد»(١١٨).

وفي كتابه المعنون «دروس من القرآن» نجده، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾(١١٩)، يذكر أن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته، هي هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري (يقصد الغرائز)، وهداية الحواس والمشاعر، وهداية العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، ثم هداية الدين التي يقول بصددها إن العقل يغلط في إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدامه فيما فيه سعادته الشخصية

(١١٧) السابق/ ٨٨ ـ ٨٩. وانظر كذلك ص / ١٠٩.

(١١٨) ص/ ١٣٦ ـ ١٤١.

(١١٩) الفاتحة: ٦.

والنوعية ويسخره لشهواته ولذاته حتى تورده موارد التهلكة. لذلك احتاج البشر إلى هداية من السماء ترشدهم في ظلمات أهوائهم وتوقفهم عند حدودهم، وتعرّفهم بخالقهم وما يجب له من ضروب العبادة وبكيفية الاستعداد للقائه في الحياة الآخرة كي يسعدوا فيها(١٢٠).

وفي نفس هذا المعنى يقول في موضع آخر من الكتاب ذاته: «من لم يؤمن بأن الحكمة السامية تقضي بأن يكون في البشر مبشرون ومنذرون يوضحون السبل ويكشفون الحُجُبَ ويغمض عينيه عن النظر في الأدلة التي تؤيد دعواهم يُحْرَمُ حظًا وافرًا من المعارف التي يصعب على عقله أو يستحيل عليه أن يصل إليها بدون واسطة هؤلاء المرشدين (يعني الأنبياء)، ويلتبس عليه كثير من أمره وتخفى عليه طرق الصواب في كثير من عمله فيقع في الشر وهو يسعى إلى الخير، ويصيبه الضر من حيث كان يطلب المنفعة. وأي خسران أعظم من هذا؟»(١٢١).

ويقول عن القرآن الكريم في رسالته عن «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»: «هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيث سار شرقًا وغربًا لا بد أن يعود نوره إلى الظهور ويمزق حُجُبَ الضلالات ويرجع إلى موطنه الأول في قلوب المسلمين ويأوي إليها. العلم يتبعه، وهو خليله الذي لا يأنس إلا إليه، ولا يعتمد إلا عليه»(١٢٢).

فهل من يقول هذا يمكن أن يُتَّهَم بأنه كان يرى أن الدين إنما جاء للعامة لا للخاصة؟ ولقد كان ولا يزال لمحمد عبده مخالفون في بعض آرائه واجتهاداته، ولكننا لم نسمع أبدًا من أي منهم أنه كان يقول بما افتراه عليه شاخت. وأحسب أن ذلك

(١٢٠) دروس من القرآن/ ٤٨ ـ ٥٠.

(١٢١) السابق/ ٨٣.

(١٢٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية/ ١٢٣.

المستشرق يريد تشكيك المسلمين في دينهم عن طريق إيهامهم أن عقلاً كبيراً كعقل محمد عبده يرى أن الأديان إنما تفيد العامة، أما الخاصة فلهم من عقولهم هاد. وأحسب كذلك أن تعقيب محمد عبده على ما سمعه من الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر عن تدهور الأخلاق والفضائل عند الإنجليز بسبب تقدم الأفكار المادية كاف لإغلاق هذا الباب (الذي فتحه شاخت) إلى الأبد وإخراس هذا المستشرق. قال الأستاذ الإمام رحمه الله: «هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً مما يفيد في راحة الإنسان أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها عليه حتى يعرفها ويعود إليها. هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كانت من الحديد اللامع المضيء أفلا يتيسّر لهم أن يَجْلُوا ذلك الصدأ الذي غشّى الفطرة الإنسانية ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحاني؟ حار الفيلسوف في أوربة وأظهر عجزه مع قوة العلم، فأين الدواء؟ الرجوع إلى الدين. الدين هو الذي كشف الطبيعة الإنسانية وعرّفها إلى أربابها في كل زمان، لكنهم يعودون فيجهلونها»(١٢٣).

* * *

(١٢٣) نقلاً عن العقاد/ عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده/ ٨٨/٢١٥ ـ ٢١٦.